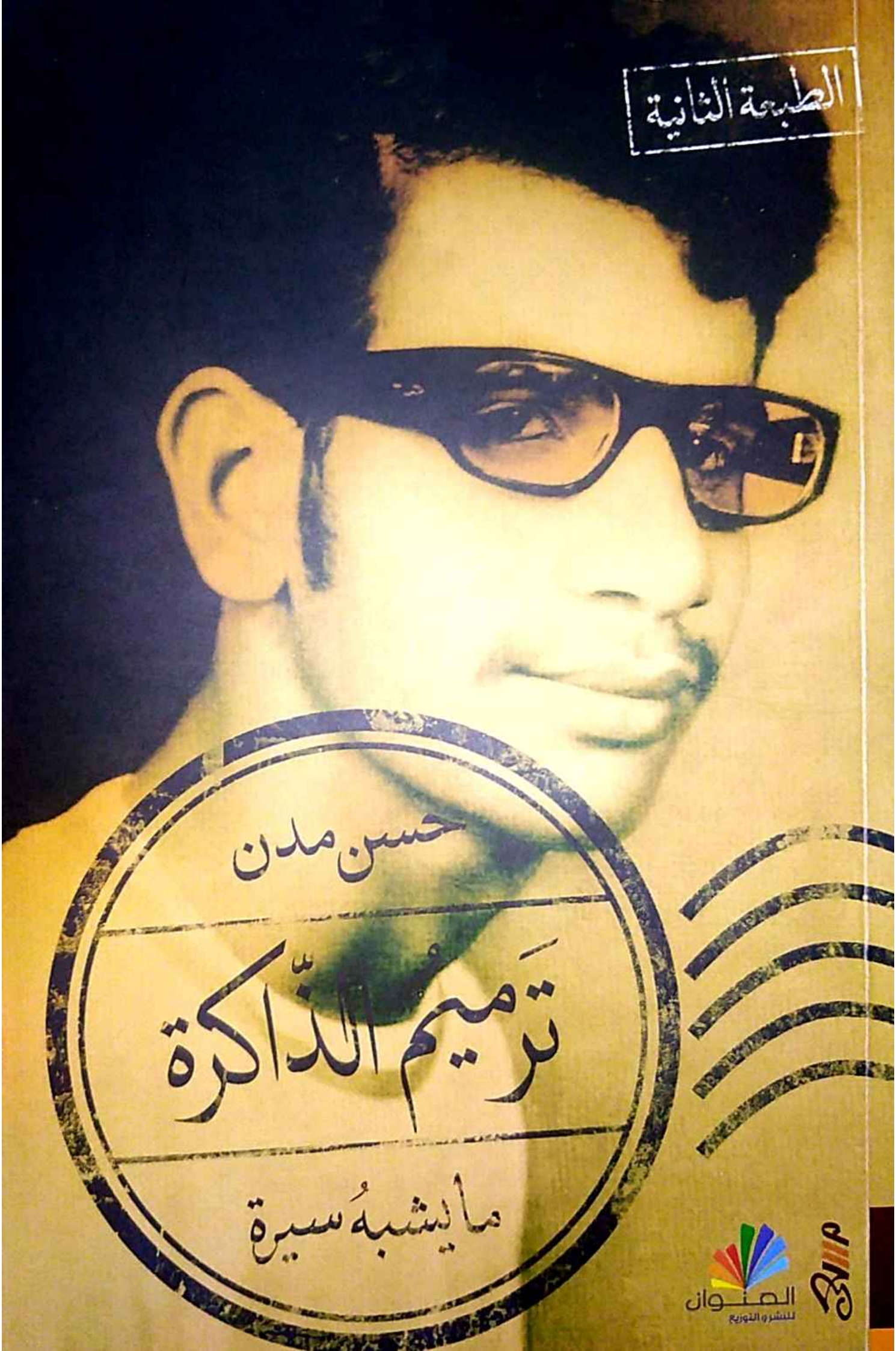

الطبعة الثانية

حسن مدن

ترميم الذاكرة

ما يشبه سيرة

العنوان
للنشر والتوزيع

تَرميمُ الذّاكرة

مايشبهُ سيرة

حسن مدن

ترميم الذاكرة

ما يشبه سيرة

العنوان
للنشر والتوزيع

مسعى للنشر والتوزيع
Masaa Publishing & Distribution

الطبعة الثانية 2017

HASAN MADAN

MEMORY RESTORATION

ترميم الذاكرة: ما يشبه سيرة
حسن مدن
Memory Restoration
Hasan Madan

الطبعة الثانية - 2017

ISBN 978-1-988483-24-5

جميع الحقوق محفوظة

Ottawa, ON. Canada
info@masaapublishing.com
www.masaapublishing.com

ص.ب: 81811 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: alenwan10@gmail.com
هاتف: +971-55-653-1511

Copyrights © Hasan Madan 2017

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات أو استرجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

صورة الغلاف: الكاتب عام 1970

تصميم الغلاف: محمد النبهان

«أتعبتني يا دورة المفتاح

في الباب

الذي ما خلفه أحد.»

مريد البرغوثي

«إذا أدركك الحنين إلى مكان، فلا تعد إليه أبداً.»

غراهام غرين

«نحن نعيش غارقين في النّسيان إلى أعلى رؤوسنا، ولا نريد أنْ نعرف ذلك. وحدهم منْ يعودون، مثلما عاد عوليس إلى مسقط رأسه إيثاكا، يستطيعون أنْ يروا -مذهولين مبهورين- إلهةَ الجهل.»

ميلان كونديرا

لماذا بين ركام الأحداث والوقائع الكثيرة التي نحياها في حياةٍ ممتدّةٍ لا تحتفظ ذاكرتنا إلا بنزرٍ يسيرٍ منها؟!

لماذا تلحُّ على أذهاننا ذكرى بضع حكاياتٍ، وتتوارى آلاف الحكايات اليوميّة التي عشناها في الطّبقات السّفلى العميقة من الذّاكرة، ولا تحضر على بالنا وقتما نشتهي؟ الأنَّ لهذه الحكايات وقعاً خاصّاً، سحراً خاصّا كذاك الذي لبدايات قصص الحبّ، أم لأنّ حيّز الذّاكرة محدود وضيّق لا يتّسع إلا لأشياء محدودة، أشبه بطاقة سدٍّ لحبس المياه لا يحتمل أكثر من طاقته؟!

إذا كان ذلك صحيحاً، فالسّؤال عن السّبب الذي يجعل أشياء بعينها دون غيرها حاضرةً في الذّاكرة نستدعيها وقتما نشاء، يظلّ سؤالاً بحاجة إلى إجابة!

حين نكون في المكان الذي نحبّه ونألفه فإنّنا نكتفي بأن نعيش فيه. إنّنا لا نتذكّره ولا نكتب عنه إلّا عندما نكون بعيدين عنه. سيرة المكان لا تُنجز ولا تُكتب إلّا في مكانٍ خارجه. إنّك لن تستطيع أن تصف المكان وأنت فيه، لأنّك إذ تكون داخله لا تكاد تلحظ تفاصيله ودقائقه التي تتآلف معها وتلمسها كلّ ساعة أو تمرّ عليها كلّ يوم.

إنّنا لا نصف ما نرى، إنّما ما نتذكّر. إنّ الذّاكرة هي من يَصف، هي التي تُعيد صوغ تشكيل الأشياء بعد أنْ نصبح على مسافةٍ كافيةٍ منها، تلك المسافة الضّرورية لإشعال الحنين إليها.

أذكر أنّني شاهدتُ في أحد المعارض التّشكيلية لوحةً تصوّر مبنى من عدّة طوابق محاطاً بأشجار البتولا الشّاهقة، ومغطّى بالقرميد الأحمر الذي انزاحت عنه آخر بقايا الثّلج. كان المبنى يعود لذلك الزّمن الذي كانت فيه البيوت تُبنى بأناة وصبر قبل أن تحلّ الأزمان التي سادت فيها بنايات علب الكبريت -كما تسمّى- التي تُشاد بسرعة وكيفما اتفق، دونما ذوق أو حاسّة جماليّة، خاصّة في المدن المكتظّة بالسّكان التي يتعيّن فيها حلّ مشكلات السّكن بسرعة لتأمين المأوى الممكن للنّاس، وليجني المتنفذون من المُلاك أقصى ما يستطيعون من أموال.

كانت تلك اللوحة تُظهر النّوافذ الأنيقة تحفُّ بها سلال الزّهور، وتغطّيها السّتائر البيضاء التي تشفّ عن غرفٍ واسعة مُنارة بضوء الشّمس. شدّتني هذه اللوحة طويلاً؛ لأنّها ذكّرتني بعمارةٍ أقمتُ في إحدى شققها فترة دراستي العليا، ومن الصّعب وصف المشاعر التي انتابتني لحظتها، لكنّها بالتّأكيد أقرب إلى مشاعر الحنين للمكان، ليس من حيث كونه مكاناً مجرّداً فيه عناصر جمال حرصت اللوحة على إبرازها، وإنّما من حيث الذّكرى الحلوة

التي ارتبط هذا المكان بها. تلك الذّكرى لا تُستعاد، وإن استعيدت، فإنّها لا تُستعاد بذات التّفاصيل الحميمة التي كانت عليها أوّل مرّة، ولهذا السّبب على ما يبدو فإنّ (غراهام غرين) ينصحنا في روايته "كوميديا الممثّلين" بالقول: «عندما تحنُّ كثيراً إلى المكان فلا تعد إليه».

إنّ الذّكرى نفسها لا تستعاد حتّى لو تيّسرت لها كلّ الظّروف التي تيسّرت للحدث ذاته أوّل مرّة قبل أن يصبح ذكرى؛ لأنّنا في الحال الثّانية -حال الاستعادة- نكون بصدد حدثٍ آخر يؤسّس لذاكرةٍ جديدة، وليس مُهمّاً هنا أن تكون أفضل أو أسوأ؛ لأنّ الأساس هو أنّها مختلفة.

والحقّ أنّ ألفةً من نوعٍ حميم تنشأ بين الإنسان والأمكنة التي يعرفها، وإذا قدّرت لك الحياة أن تستقرّ في أماكن مختلفة، فقد تلاحظ عجزك عن إقامة علاقة ودّ وألفة مع بعض المدن التي تأخذك الحياة إليها، فيما تجد على النّقيض من ذلك، أنّ الحياة لو حملتك يوماً على مغادرة بعض الأماكن فإنّك تغادرها بغصّةٍ تقف في الحلق، وبشعورٍ مشابه لذلك الذي سيطر على أبي فراس الحمداني وهو يغادر حلب فأنشد: «أسيرُ عنها وقلبي في المقام بها/ كأنّ مهري لثقل السّير محتبس».

كثيرون يعتقدون بأنّ النّفس تهفو دائماً لمكانها الأوّل، كما يهفو القلبُ لحبّه الأوّل، ويقلّلون من أهميّة الأماكن والمشاعر اللاحقة، مستدلّين على ذلك بقول الشّاعر العربيّ: «نَقلْ فؤادك حيث شئت من الهوى/ ما الحبّ إلا للحبيب الأوّل/ كمٍ منزل في الأرض يألفه الفتى/ وحنينه أبداً لأوّل منزل».

في «عشب الليل» رواية إبراهيم الكوني حديث عن قومٍ من البدو خلّفوا صحاريهم وراءهم لسبب من الأسباب، وظلوا يحلمون بالعودة إلى الوطن الذي بات بعيداً أو ليس في متناول اليد، ويردّدون الأشعار عن قسوة الغربة،

وجاءت أعوامٌ متتالية اجتاحت فيها السّيول صحاريهم، فلم تُبق فيها من أثر خلّفوه وراءهم حين هاجروا، أو أُرغموا على الهجرة أوّل مرّة، ولكنّهم رغم ذلك لم يكفّوا عن التّغنّي والحلم والشّكوى من البعد عن الوطن.

إذا فقدنا المكان طويلاً، خاصّة إذا كان وطناً أو حتّى مجرّد مسقط رأس، فإنّه يتحوّل إلى حلم، إلى أسطورة، إلى فردوس مشتهى أو مبتغى، بحيث أنّ الصورة الحقيقية للمكان المفتقد تصغر أمام صورة الحلم الذي كوّنّاه عنه أو من وحيه. لكن كيف يحدث أن يعجز المرء عن وصف أو مدح المكان الذي يحبّه حين يكون داخله، كيف لا يستطيع اختبار علاقته بهذا المكان إلا حين يبعد عنه طوعاً أو كرهاً؟

إنّنا إذ نختبر هذه العلاقة الحميمة فإنّ أوّل ما نحنّ إليه أو ما يتبادر إلى ذهننا صورة الوجوه التي نحبّها في ذلك المكان الذي خلّفناه وراءنا، وحتّى حين نتذكّر مرابع الذّكرى فإنّما لنُشيد منها خلفيّة مكانيّة لما يشدّنا إلى هذه الوجوه، وفي هذه الحال تقفز إلى أذهاننا صور وتداعيات عن أشياء في منتهى البساطة والصّغر، بحيث إنّنا في الغالب لم نكن ننتبه إليها حين كنا بجوارها، كنّا نتعاطى معها أو نقيم علاقتنا بها بوصفها أموراً عاديّة تماماً، فنفاجأ حين نبعد عنها أنّها ليست كذلك، إنّها مكتنزة بالتّعبيرات والرّموز، وقادرة على أن تشعل في نفوسنا حرائق من الشّوق لا للأمكنة التي بعدت فحسب، وإنّما أساساً للزّمن الذي أصبح ماضياً.

وقد لا تكون المسافة بين ما جرى وبين تذكّرنا له طويلة، فذلك لا يكتسب كبير أهمية. فالذّكرى يمكن أن تقفز من وقتٍ بعيد كنّا قد تصوّرنا أنّنا نسيناه بما له وبما عليه، وقد تقفز من حدثٍ طازجٍ مازال يفوحُ بطعم الجدّة، ولكنّه بات أمراً منجزاً، فعلاً ماضياً، بات ذكرى.

الذّاكرة أشبه بالدهاليز وبالغرف المغلقة أو حتّى المفتوحة نلجها ونحن نتحسّس خطواتنا بحثاً عن تلك الأشياء الوديعة التي خلّفناها هناك، قبل أن نجد أنفسنا مرميين في صقيع الروح، خُلواً من القرب، على مسافة نائية، أنأى ممّا يخطر على البال، عن حضننا الأوّل. في كلّ رواق ثمّة ذكرى. ما نفعله حين نكتب عن الماضي هو لملمة الذّكريات من هذه الأروقة ثمّ نعيد تشكيلها.

وفي حياة المرء تحين لحظة يمكن أن نطلق عليها لحظة الوقفة مع الذّات. لحظة تتكثّف فيها المشاعر والخبرات والأفكار والأماني التي لم تُبلغ. في بؤرة واحدة ملأى بالتّوتّر والأسئلة، حين يخلد المرء إلى نفسه وحيداً تماماً؛ ليجابهها بما يجب أن يجابهها به من بواعث الحيرة والقلق والسؤال.

قد تكون هذه لحظة واحدة في الحياة كلها. وقد تكون لحظات تتكرّر مرّات في حياة آخرين، حين يختارون الالتفات قليلاً أو كثيراً إلى الوراء، إلى الذي انقضى وإلى الذي بلغوه، وهي وقفة تنمُّ عن وعي وحسٍّ عالٍ بالمسؤولية إزاء النّفس وإزاء الحياة، حين لا يريد لها المرء أن تُنفق كيفما اتّفق، وإنّما أن يجعل منها حياةً ذات جدوى، حياة متوهّجة؛ لأنّ مثل هذه الوقفة هي التي نطلق فيها العنان لكلّ أفكارنا ومشاعرنا وهواجسنا كي نحرّرها من الضّغوط والكوابح.

في كلمات أخرى نحرّرها من قوّة العادة والتّكرار، حين يجد المرء أيامه وقد أصبحت نسخاً متكرّرة عن بعضها بعضاً، فلا ومض فكرة غير مسبوقة يُشعل الذّهن. ومثل هذه اللحظة هي التي يُمكن أن تشكّل حافزاً لنا لانطلاقة جديدة، لمنعطف جديد في الحياة، نبلغ فيها آفاقًا لم يسبق أن ولجناها.

لحظة كهذه تذكّر بتلك الوقفات التي كان (سدهارتا) بطل (هرمان هيسه) في الرّواية العذبة التي تحمل الاسم نفسه يقفها مع ذاته بعد كلّ تجربة

ثرّية يخوضها وهو يقتحم الحياة، ويخوض تجاربها بكلّ ذرة من وجدانه، برغبة عميقة في أن يتشرّب كلّ قطرة منها ويعيش كلّ تفصيل فيها، ممّا كان يجعله رقيباً يقظاً على ذاته، ليلاحظ أنّه في غفلة من الزّمن ربّما عاش الحياة دون أن ينتمي إليها.

إنّه يُحرّضنا على «دوام اليقظة المجيدة التي تجعلنا في حال من التوقّع المتحفّز وكبرياء الوقوف أمام دروس الحياة وتجاربها بكلّ جسارة وقوّة وإرادة ومن دون تهيّب، حتّى نقذف بأنفسنا من أسوار هذه النّفس المركّبة فلا هي جسد فحسب، ولا هي وعي فحسب. إنّ دولاب التّفكير والتأمّل في ذواتنا يجب ألّا يهدأ، يجب ألّا يتوقّف، عليه أن يدور ويدور؛ لأنّه ما إن يتباطأ فإنّ تلك علامة أنّ الوهن قد ابتدأ يدبّ في الرّوح، وأنّ هذا التّباطؤ مقدّمة للتّوقّف النّهائيّ، إنّه أشبه بدخول الرّطوبة في جذع الشّجرة الميّتة لتملأه وتجعله يتعفّن».

هكذا كسل الدّنيا يمكن أنْ يزحف إلى أرواحنا ويتغلغل في ثناياها ببطء حتّى لا نكاد نلحظه، لكنّه مع الوقت يثقّل هذه الأرواح ويأخذها نحو الموات الدّاخلي. حين يصمت ذلك الصّوت الذي يمكن أنْ نسميه الواعز على السّؤال. وما من عاصم من هذا الخطر المحدق الذي يتربّص بنا سوى تلك البرهة من الإصغاء للذّات، من إرهاف السّمع لذلك الصّوت الواضح الصّافي الذي يستيقظ فجأة لينبّهنا إلى أنّ في الأمر خللاً ما يجدر بنا ألّا نستسلم إليه.

في الفيلم المعروف لستيفن سبيلبرج (إنقاذ الجندي رايان) ثمّة مشهد شديد التّأثير والتّعبير. يحكي الفيلم قصّة فرقة من سبعة جنود تُكلّف بالعبور خلف خطوط النّيران للبحث عن الجندي رايان الذي قُتل إخوانه الثّلاثة في

المعركة، ممّا جعل قيادة الجيش تصدر أمراً بإعادته ليبقى بجانب أمّه الثّكلى. ينحو الفيلم بعد ذلك منحى آخر، حين تجد فرقة الإنقاذ نفسها مدعوّة للانضمام إلى فرقة أخرى محاصرة من العدوّ.

وفي لحظة استراحة قبيل المعركة الفاصلة يقول الجنديّ رايان الذي كان قد أبلغ بنبأ وفاة أشقائه مخاطباً قائده إنّه لا يستطيع تذكّر شيء من الماضي، شيء عن إخوانه، رغم محاولته فعل ذلك، وهنا يزجي له القائد نصيحة ثمينة مفادها أنّ سبب ذلك يعود إلى أنّه يفكّر بشكل عام. «لكيْ تتذكّر -قال القائد- حاول أنْ تستعيد تفصيلاً صغيراً أو حكاية من الماضي، ستجد بعدها أنّ الملامح الغائبة لوجوه أشقائك قد عادت إليك».

إنّنا لا نستعيد الملامح إلا حين ربطها بحدث، بذكرى معيّنة، بواقعة. وكتب رجل فقد أمّه وهو لا يزال طفلاً أنّ ما انطبع في ذهنه عنها هي صورتها وهي تسرّح شعرها في غرفة النّوم، بينما شعرها القاتم الطّويل يتدلّى على ظهرها. لولا هذا المشهد الذي انحفر في ذاكرته عنها لكانت بالنسبة له صورة غائمة غير محدّدة.

ومرّة ذكر غابرييل ماركيز أنّ الرّواية عنده تبدأ بحدث أو حكاية صغيرة، تشكّل المنطق أو البؤرة التي منها يتحرّك في اتّجاهات السّرد المختلفة، وهو أعطى مثلاً على ذلك ما فعله في رائعته (مائة عام من العزلة) التي تبدأ بمشهد جَد شيخ يمسك باليد اللدنة الصّغيرة لحفيده ويضعها على قوالب الثّلج في محلّات تبريد ضخمة عائدة لشركة الموز الأمريكيّة التي كانت تحكم السّيطرة على جمهوريات أمريكا الوسطى في ذلك الزّمن.

لم يكن الحفيد سوى ماركيز نفسه عندما كان طفلاً، فقد تذكّر كيف أنّه في طفولته المبكّرة ألحّ على جدّه بأنْ يرى الثّلج الذي يبدو أنّه كان قد سمع

عنه، ولمّا لم تكن جمهوريّات أمريكا الوسطى من المناطق التي ينهمر عليها الثّلج، فإنّ الجدّ لم يجد وسيلة لتقريب صورة الثّلج إلى ذهن حفيده سوى أخذه إلى مكان قوالب الثّلج وتحسيس يديه ببرودتها.

بعد هذه الحكاية البسيطة المعبّرة انهمرت أحداث الرّواية وتداعت الذّكريات وانطلق العنان للمخيّلة لاستعادة الأحداث وإعادة تركيبها، لا بل وابتكارها في عمليّة توليف لفانتازيا غرائبيّة تستمدّ كلّ عناصرها من المعاش ولكنّها تضخّمها أو تبالغ في طريقة عرضها وأحيانا تقلبها رأساً على عقب. وحالنا في الحياة -إزاء الأحداث التي اجتزناها والوجوه التي نعرفها- يبدو شبيهاً بالحال الذي عناه ماركيز في حديثه.

أيّ إنسان عزيز علينا تجعلنا الحياة على مبعدةٍ عنه أو تغيّبه لهذا السّبب أو ذاك إنّما يستقرّ في ذاكرتنا حضوراً معنويّاً لا فسيولوجيّاً، أي أنّ الذي نتذكّره عنهُ في المقام الأوّل هي الأحداث التي جمعتنا وإيّاه، أو الأحداث التي تذكّرنا به، ثمّ تنثال الذّكريات دوائر فدوائر تكبرُ وتكبر حتّى نستعيد الصّورة وتبدو الملامح واضحةً وباعثةً على المشاعر المختلفة التي تستحثّنا عليها هذه الذّكريات.

مرّةً على شرفة غرفة في فندق شيراتون القاهرة، وبعد أنْ أعددت حقيبتي للسّفر وقبل هنيهات من مغادرة الغرفة، خرجت إلى الشّرفة لأملأ ناظري بمشهد النّيل الخالد. كان الوقت غروباً، وكانت الشّمس تتوارى والجوّ بارداً، والنّيل بكلّ خلوده وجبروته الذي يخفق هدوؤه الخارجيّ الخادع في إخفائه ينبسط ممتدّاً، خلاّباً، مدهشاً، وعلى سطح مائه المتماوج تنعكس الأضواء، مُشكّلة ما يشبه الحكاية الأسطوريّة.

مأخوذاً بسحر ذلك المشهد خطر في بالي خاطر: كم عدد العشاق الذين وقفوا أمام هذا النّهر عبر التّاريخ! كم من الشّعر ومن النّثر قالوه عنه وكتبوا! هل يذكرهم هذا النّهر؟ هل يعرف أسماءهم؟ هل يفطن لمقدار اللوعة أو البهجة التي اختلجت في نفوسهم وهم يقفون أمامه؟ إنّه لا يفطن لذلك، رغم أن في مائه وقاعه ذرّة من ذرّات كلّ هؤلاء العشّاق والحالمين والشّعراء ومرهفي الحسّ الذين ناجوه وساروا خفافاً وعلى مهل بجوار ضفافه وهم يصوغون قصائد الأمل والحنين.

حال الزّمن في علاقته معنا شأن علاقة النيل بمحبّيه وعشّاقه. هم يعبرون، ولكنّه منبسط في مجراه في المسافة الممتدّة من مصبّه البعيد إلى الواحات البعيدة التي يسافر إليها، لا يشيخ، ولا يكبر ولا يحزن.

ورغم كلّ الحياد الذي يبديه فإنّه لا يفلح في إخفاء مكره حين يجعلنا نحسّ بأنّنا في معظم الوقت بلا أعمار. إنّه يهبنا تلك الجذوة المشتعلة في الرّوح كي «نحبّ الحياة ما استطعنا إليها سبيلا»، حتّى ولو كان ذلك في لحظةٍ استثنائيّة، كاللحظة التي تجعلنا نعي أعمارنا، ربما كي نحبّها، ربّما كي نحبّ أكثر الذين بفضلهم أصبحت هذه الأعمار جميلة.

في إحدى قصائده نصح ناظم حكمت المهاجرين والمغتربين عن بلدانهم بألّا يدقّوا مسماراً على حيطان غرفهم ليعلّقوا عليه ملابسهم، وأن يلقوا بهذه الملابس بعد أن يخلعوها على الكرسيّ، لأنّهم عائدون إلى بلدانهم قريبا!

لكنّ الشّعر مجاز، ولا أحد يأخذ المجاز على محمل الجدّ كما نرى، ليس لأنّنا لا نريد أنْ نفعل ذلك، ولكنّ فظاظة الحياة وقسوتها تحملاننا حملاً على التّفكير بهذه الطّريقة.

يوم غادر العرب قرطبة لم ينسوا مفاتيح البيوت الجميلة المطليّة بالبياض

المنبسطة على السّهول الأندلسيّة، فاحتفظوا بتلك المفاتيح في جيوبهم الواسعة كأنّهم عائدون إليها بعد وقت لن يطول، وحسب تعبير الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي فإنّ اللاجئين الفلسطينيين في نكبة 1948 إذْ لجأوا إلى البلدان المجاورة كترتيب مؤقّت تركوا «طبيخهم» على النّار آملين بالعودة بعد ساعات. السّاعات كما نعلم امتدّت لتتجاوز حتّى الآن ستّة عقود من الزّمان، وما كان مؤقّتا غدا دائمًا، وتجري التّرتيبات لجعله أبديّاً.

لكنّ الإنسان أميل للنّظر إلى كلّ الأمور بصفتها مؤقتة، بصفتها عابرة. الإنسان الذي يقتلع من محيطه الآمن، ومن الأشياء التي ألفها والأحبّة الذين تعلّق بهم الفؤاد، يُقنع نفسه، في ما يشبه التّمني، بأنّ ما جرى ليس سوى أمر مؤقّت، وأن المحيط الذي انتزع منه سرعان ما سيحتضنه من جديد، ولكنّ الحياة ليست سخية في تقديم عطايا من هذا النّوع. إنّها تبدو قاسية حين ترمي بأبنائها إلى المجاهل.

في رواية صغيرة اسمها (الحريق) للكاتب فالنتين راسبوتين يدور الحديث عن بلدة مشوّشة وغير مريحة، لا هي مدينة ولا هي قرية. إنّها أشبه بموضع حلّ فيه بَدوٌ رُحّل ليأخذوا قسطاً من الرّاحة في انتظار تحسّن الطّقس، فظلّوا فيه مكرهين «فلم تنبت لهم جذور».

هذه الجملة تُلخّص ما ينطوي عليه الشعور بالأمور بوصفها مؤقّتة من معاناة. أنت تتعاطى مع المؤقّت بأنّه ليس سوى مرحلة قصيرة عليك اجتيازها كيفما اتّفق آملًا في وضع أحسن، يبدو فيها هذا المؤقّت ليس أكثر من عتبة نحو الوضع المرتجى، لكنْ غالباً ما يطول هذا المؤقّت ليغطّي مساحة تكتشف بعدها أنّك لم تظفر بما كنت قد مَنيت النفس بالظّفر به، ولا أنت عشت المؤقّت بوصفه حياتك المعطاة التي عليك أنْ تعيشها.

أنّه طالما كان النّسر قد حطّ هنا، فإنّ هذه أرض أُعدّت لشعب عظيم. وأفتى بعضهم بأنْ يقوّسوا ويعوّجوا نبات الخيزران الذي يكثر في المنطقة ليكون بمثابة أساس للمدينة حيث استقرّ النّسر، وبادر السّكان بالفعل إلى ملء المكان بالخيزران حتّى غطّى مستوى سطح الماء، وقاموا بعد ذلك بعمل آخر، إذْ حاكوا وشبكوا الخيزران بعضه ببعض حتّى جعلوه كقاع سلّة، ثمّ وضعوا فوق الخيزران التّراب، كثيراً من التّراب، حتّى أصبح بإمكانهم تشييد دُورهم فوق تلك الغابة الكثيفة من الخيزران. وفعلاً انطلق النّاس تيمّناً بمقدم النّسر الكبير فبدؤوا في بناء بيوتهم؛ لأنّ ذلك ما أوحى لهم به قدومه. وشيئاً فشيئاً توسّع المكان وزرع فيه النّاس كثيراً من نبات السّعد في جميع الجهات. وأهالوا على ذلك مزيداً من التّراب، وصار النّاس الذين جاؤوا فيما بعد يقومون بما قام به من سبقهم.

لكلّ شعب حكايته الخاصّة عن نفسه وعن بلده. وقد تكون حكاية حقيقيّة، ولكنْ قد يذهب الخيال أقاصيه فيجترح أسطورة جميلة، تؤكّد أنّ الأوطان تجمع بين الحكاية والأسطورة. هاهنا تكمن فكرة الوطن.

لم يحلّ نسر كبير على البحرين الصّغيرة كذاك الذي حلّ على المكسيك. لكنّ على هذه الجزر الجميلة حكايا مجيدة عن وطنٍ نُحبّه صاغ شعبه أساطير جميلة عن نشأته.

لا تتجاوز مدة الرّحلة بالطّائرة من دبيّ إلى البحرين أكثر من ساعة. لكنّ الدقائق الستين لتلك الساعة كانت مليئة بالضّجيج. لم يهدأ ذهني وأنا أستعيد الصّور والوجوه والأماكن والحكايات. هذه هي المرّة الأولى التي سأخطو فيها برجلي خارج بوابة مطار البحرين بعد ستّ وعشرين سنة من الغياب القسريّ، من المنفى.

الأصحّ أنْ نتشرّب لحظات السّعادة العابرة قطرة قطرة، قبل أنْ تتلاشى وتزول؛ لأنّ الدّائم ليس سوى سلسلة من «المؤقّتات».

***

يصوغ كلّ شعب أسطورة عن نفسه وعن بلاده. كلّ شعب هو- بنظر نفسه - شعب مجيد وكلّ بلاد -بنظر شعبها- بلاد عظيمة. هذا صحيح في الحالين: في أنّ كلّ الشّعوب تفكّر بهذه الطّريقة، وفي أنّ كلّ الشّعوب مجيدة وكلّ البلدان عظيمة، بالمقدار الذي نمجّد فيه الإنسان تمجيداً مطلقاً من حيث كونه أرقى مخلوقات الله على الأرض، ومن حيث أنّ كلّ بقعة في هذه الأرض عزيزة على أهلها.

من هنا جاءت فكرة الوطن.

طالعتُ مرّة كتاباً عن أساطير من أمريكا اللاتينية، وراقت لي حكاية من المكسيك، تقول إنّه كان هناك نسر كبير عاش منذ زمن بعيد، حطّ في إحدى المناطق، نشر جناحيه فلم يسعه المكان، فقال إنّ شعباً صغيراً ليس جديرا به. انطلق النّسر من جديد في الفضاء متّجهاً نحو منطقة أخرى، وهناك أيضاً مدّ جناحيه، إلّا أنّ المكان لم يسعهما، وهكذا فعل في مناطق أخرى تالية، قبل أنْ يقرّر مواصلة طريقه نحو منطقة (مكسيكو) حيث كان هناك نبات من الصّبار وسط بحيرة كبيرة، مدّ جناحيه فامتدّا في هذا المكان وكان بإمكانه أنْ يستدير بجناحيه في مختلف الاتّجاهات.

وعندما شاهد النّاس القاطنون في هذه المنطقة النّسر أصابهم الانشداد والذّهول، فصاروا يتساءلون كيف وصل هذا النّسر إلى هنا؟ إذْ لم يسبق لهم أنْ رأوا نسراً في هذا الحجم، التفّ النّاس حول النّسر، وقرّروا بعد تداول

عمري اليوم، في يوم العودة للوطن المصادف السابع والعشرين من فبراير 2001 خمسة وأربعين عاماً. حين غادرتُ الوطن آخر مرة لم أكن قد أكملت العشرين بعد. كنت خُلواً من التّجربة الكافية، وكان عليّ أنْ أتشكّل، رجلاً ومعرفةً ووعياً وخبرةً، بعيداً عن وطني على مدار سنوات طوال توزّعت على عدّة ديار ومدن وأماكن.

ليست هذه المرّة الأولى التي تطير بي الطّائرة إلى مطار البحرين الدّولي منذ أن بعدتُ عن وطني. لقد تكرّر ذلك خلال السّنوات العشر الماضية مرّتين أو ثلاث. المرّة الأولى كانت في ديسمبر من عام 1992 حيث خلّفت ورائي صقيع موسكو وثلجها. كان ذلك بالضّبط في السّابع عشر من ديسمبر، وكانت المدينة السّابحة في بياض الثّلج تستعدّ لاستقبال أعياد الميلاد ورأس السّنة، وكانت أشجار العيد تزيّن المحلّات والشّوارع والبيوت.

ألحّ عليّ أصدقاء وصديقات كُثر يومها أن أبقى في موسكو حتّى بداية العام الجديد، أنْ أقضي معهم رأس السّنة ثمّ أغادر. ولكنّي كنت قد صمّمت على السّفر في التّاريخ الذي حجزت عليه في الرّحلة الأسبوعيّة الوحيدة التي كان الطّيران الرّوسي يطير بها إلى البحرين.

قبل أنْ تحطّ الطّائرة في مطار البحرين في تلك الليلة، رحت أحدّق من نافذة الطّائرة في أضواء الجزيرة التي اسمها البحرين -والتي هي وطني- البلد الذي ولدت فيه، وفيه ولد أهلي وأجدادي، وأحمل جنسيّته.

الوطن من السماء!

أنْ ترى الوطن من فوق، من علوٍ. أضواء تتلألأ في خطوط دائريّة وأخرى عموديّة، ومن تلك الأضواء تستطيع أنْ تحدّد الفاصل بين البحر واليابسة. يبدأ البحر حيث تبدأ العتمة، أما اليابسة فإنّها تسبح في الأضواء،

تشعّ بالنّور. قبل عشر سنوات استغرقني التّفكير ذاته عما خلفتهُ في وطني: صباي وغرفتي المتواضعة في بيتنا القديم، وبعض كتب وصور ورسائل حبٍ أولْ لم يكتمل.

لمْ أر الوطن يومذاك. لم يُسمح لي بالدخول. اكتفيت بالذّكرى التي رسخت في الذّهن، أنْ تحدّق في أضوائه من علو. ليلة مبيت واحدة على كرسيّ في قاعة ترانزيت المطار، في اليوم التّالي أُعدّ لي على عجل جواز سفر صالح لمدّة سنة واحدة، وعلى إحدى رحلات شركة (طيران الخليج) المتّجهة إلى دبيّ، طرت إلى الإمارات.

بعد سنوات أخرى، كنت عائداً من عمّان عاصمة الأردنّ في طريقي إلى دبيّ. كانت الرّحلة عبر البحرين، كان لا بدّ من وقفة أخرى في مطار الوطن. الوقت كان نهاراً، وكان الفصل صيفاً والشّمس ساطعة. ولأنّ فترة التّوقّف تستغرق ساعات، فقد رحت أتجوّل في أرجاء المطار. من خلف الزجاج بدت أشجار النّخيل الباسقة في محيطه، على بعد مرمى النّظر. أحسستُ في تلك النخيل بشيء من طفولتي، من صباي؛ لأنّها ذكّرتني بواحة النّخيل التي كانت تجاور البيت الذي وعيتُ فيه على الدّنيا وقضيت سنوات الطّفولة والصّبا.

الوطن من وراء الزّجاج!

أنْ ترى تراب الوطن ونخيله وبيوته وبعض شوارعه ولكنْ من خلف الزّجاج. لا تطأ قدمك ترابه، ولكنّ عينيك تريانه، ليستثار في نفسك ولع وغصّة.

اليوم السابع والعشرون من فبراير 2001، قلتُ مخاطباً نفسي: لنْ تكتفي برؤية الوطن من السّماء، من علو، ولا من وراء زجاج المطار. ستخطو

برجليك إلى ما هو أبعد من ردهة هذا المطار، ستتجاوز بوّابته الرّئيسيّة، وتخرج إلى الشّارع وتَشُم هواه.

***

منذ سنة بدأت الأمور في البحرين تتغيّر. كانت ثمّة مؤشّرات جديّة على أنّ انفراجاً سياسياً واسعاً قادم. في أعياد سابقة أصدر أمير البلاد (جلالة الملك حاليّا) عفواً عن عددٍ من السّجناء والمعتقلين السّياسيين، وعن بعض المنفيّين والمبعدين. كنتُ على ما يشبه اليقين أنّ اسمي سيرد قريبا ضمن إحدى قوائم العفو القادمة، خاصّة وأنّ الدّولة قد أعلنت عن أنّ ميثاقاً وطنيّاً شاملاً سيطرح للاستفتاء الشّعبيّ.

وكما كان متوقّعاً أعلن الأمير في خطابه بمناسبة يوم قوّة الدّفاع، الذي يوازي عيد الجيش في البلدان الأخرى، عن مبادرته التّاريخيّة بالعفو عن المعتقلين والسّجناء السّياسيين والسّماح بعودة مَن هم خارج الوطن لأسباب تتصّل بموقفهم السّياسيّ.

في مساء اليوم نفسه أُخبرنا بالأسماء التي تضمّنتها القائمة. كان اسمي بينها.

لا أستطيع أنْ أصف شعوري حينها. لا أزعم أنّني طرتُ من الفرح، وأنّ الدّنيا لم تتّسع لسعادتي كما يقال في مثل هذه الحالات. لم أكن فرحاً ولم أكن حزيناً، كنت مُرتبكاً، غير مصدق. انتابني على الأرجح ذلك الشّعور الذي ينتاب أحدنا حين ينتظر طويلاً خبراً سعيداً يتمنّاه، ثمّ يطول به الانتظار ويطول ولا يأتي الخبر السّعيد، فيكاد ييأس منْ أنّه سيأتي، يكاد ينسى الأمر، وحين يأتيه على شكل فجاءة بعد طول زمن تكون مُحفزّات الانتظار والرّجاء

والأمل عنده قد هدأت، أو كفّتْ عن النّشاط.

دخلت البحرين عهداً جديداً. عن الموضوع كتبتُ مقالاً في زاويتي اليوميّة في جريدة (الخليج) بعنوان: «البحرين الجديدة»، عبّرتُ فيه عن الغبطة بأنّ الوطن بصدد القطع مع المرحلة السّابقة المثقلة بالأعباء والأحزان والتّوترات والاحتقان السّياسيّ. بعد ذلك بأيام اتّصل بي تلفزيون البحرين ليطلب رأيي في الذي يجري. كنت أتابع على الشّاشة تفاصيل ما يدور هناك.

كان الأمير قد زار مناطق سكانيةً مكتظّةً مثل جزيرة سترة ومدينة المحرّق واستقبل هناك بحفاوة شعبيّة حقيقيّة. كان الجميع يشعر بضغط المأزق الذي تعاني منه البلاد، وكانت لدى النّاس رغبة حقيقيّة في الخروج من هذا المأزق. وجرى التّعامل مع خطوات الأمير بوصفها طوق النّجاة من المآل الذي آلت إليه الأمور. قلتُ مثل هذا الكلام للمذيع التّلفزيوني غازي عبد المحسن الذي حاورني في نطاق سلسلة حوارات أجريت مع العديد من الشّخصيات المقيمة خارج الوطن.

* * *

لم تستغرق إجراءات المطار طويلاً. سرعان ما وجدت نفسي أمام حشد هائل من المستقبلين. الأهل والأصدقاء والرّفاق، رجال ونساء غصّت بهم قاعة الاستقبال في المطار.

هذا المشهد أصبح متكرّراً في الأيام الأخيرة. كلّما عاد عائد أتى النّاس لاستقباله فرحين. تهت وسط تلك الوجوه الأليفة التي سرعان ما استعدت ملامح بعضها: زملاء مدرسة، زملاء وزميلات جامعة، رفاق قدامى، وكان هناك الأهل: أختي الوحيدة الباقية من إخواني. أبناء وبنات أخوي الذين

شبّوا وكبروا وأصبح العديد منهم أزواجاً وزوجات، آباء وأمهات. أكثر من ربع قرن مضى، وقت كافٍ لأنْ يكبر النّاس ويتزوجوا ويخلّفوا أبناء وبنات. بعضهم كانوا أطفالاً يحبون حين سافرت أوّل مرّة، وبعضهم لم يولدوا بعد، والذين أتذكّرهم أطفالاً يذهبون إلى المدرسة غدوا كباراً.

وجوه كثيرة تغيّرت ملامحها، وكان عليّ أن أبذل جهداً في ترميم ذاكرتي التي تهشّمت بعض أجزائها بفعل الزّمن.

في كرّاسة أحتفظ بها دوّنت عبارة قرأتها مرّة، تقول: «إنّنا لا نعي عمرنا إلا في لحظات استثنائيّة، وإنّنا معظم الوقت أشخاص بلا أعمار»، حتّى تأتينا لحظة من لحظات التّكثيف العالي للذّكريات والمشاعر والهواجس، تحمل في داخلها شحنة جذب هائلة لتقذف بنا في دائرة من الاستعادات والأمنيات، لحظة من الرّغبة العارمة في أنْ نرى أنفسنا عن قرب وأنْ نلج ذواتنا لنتعرّف عليها، وأنْ نباغت أنفسنا بالأسئلة التي لم نعتد أنْ نطرحها.

كانت تلك بالضّبط لحظة نادرة من تلك اللحظات الاستثنائيّة التي نعي فيها أعمارنا. يحدث ذلك لأنّها تُذكّرنا بأنّ الزّمن يمضي، يدور صُعداً إلى الأمام، لا نكوصاً إلى الوراء، ولكنّه رغم ذلك لا يبلى، إنّه خارج ذلك الحساب الذي يجعل منه شابّاً أو كهلاً أو شيخاً، هو يفعل ذلك فينا فيقسم أعمارنا إلى مراحل ومقاطع نختار نحن لها التّسميات، أما هو فهو غير آبه بالذي يفعله بنا.

نحن لا نختبر الزّمن إلا في ما يتركه من آثار على الأجساد والوجوه. خارج تلك الآثار نحن لا نعثر على أثر للزّمن، لا نمسك به. الزّمن هو الأطفال وقد غدوا فتياناً أو فتيات. هو نحن وقد أصبحنا آباء أو أمهات، لم نعد شباناً وإنّما كهول وربما شيوخ أيضاً. لا أعرف كيف رأوني هم، ولكنّي

رأيت علامات ذلك الزّمن في غضونٍ تعلو الوجوه، في شعر قد تساقط أو إبيضَّ، في ملامح وقد تبدّلت.

قطعنا الطّريق إلى (السّهلة) -حيث بيتنا القديم- في موكبٍ من السّيارات. كان ثمّة زغاريد وزمامير سيّارات وأغان. ثمّة بهجة تعلو الوجوه، بهجة صادقة. لقد انتظروا هذه اللحظة طويلاً، سنوات.

طوال الطّريق كنت أحدّق في معالمه. في البيوت القديمة المتاخمة للشّارع الذي قطع قرى سنابس، وجد حفص، وجبلة حبشي، والسّهلة الشّمالية قبل أنْ ننعطف باتجاه السّهلة الجنوبيّة، إلى الحسينيّة الجديدة. لقد شُيّد مبنى هذه الحسينيّة في السّنوات الأخيرة، أما الحسينيّة القديمة التي أعهدها فقد ظلّت مكانها بمبناها القديم، وأخبروني بأنّها باتت الآن للنّساء. احتشد أهالي السّهلة من مختلف الأعمار أمام المبنى، وحين ولجت ظللت واقفاً لأكثر من ساعة أتلقّى التّهاني.

لم أدرك ما فعله الزّمن من خراب في ذاكرتي كما أدركت ذلك ساعتها. كان ثمّة من يُعرفني بالوجوه: هذا فلان، هذا ابن فلان، هل تتذكّر فلاناً جارنا القديم؟ لقد توفي قبل سنوات وهاهم أبناؤه: هل تتذكّرهم عندما كانوا صغاراً؟ لكنْ لم يكن بوسعي أنْ أتذكّر كلّ شيء.

السّهلة بكلّ بيوتها أقل من حي في أيّة قرية أخرى كبيرة. مع ذلك كانت مقسّمة إلى أحياء بينها مثلاً الفريق الشّرقي وفريق الوسط. نحن كنّا نسكن في الفريق الغربيّ، وكثيراً ما كانت تقوم مشاحنات بين فتيان هذه الأحياء. وإذا صادف وجودك في حيّ آخر غير ذاك الذي يقع فيه بيتك يمكن أنْ يسألك أحد أبناء هذا الحيّ: ماذا تعمل في حيّنا؟!

في شهر رمضان بالذّات كنّا نتجاوز تلك التّقسيمات بين الأحياء،

حين نتجمّع أمام السّاحة المحاذية لمسجد القرية في ما كنّا نطلق عليه الفريق الشّرقيّ. تلك السّاحة التي كانت تبدو لي واسعة، شأنها شأن كلّ الفضاءات المتبقيّة في ذاكرة الطّفولة، تذكّرني بشكل خاصّ بالليالي المقمرة في رمضان، حيث لا أنسى منظر القمر الفضيّ وهو ينير السّاحة عندما يكون في كماله.

كان رمضان يتيح لنا في تلك السنّ المبكّرة هامشاً أوسع من الحريّة بأنْ نجد أنفسنا أحراراً خارج البيت في الليل، وهو أمر لم يكن متيسّراً في الليالي غير الرّمضانيّة، حيث كان علينا أنْ نكون في البيوت ما أنْ يحلّ المغرب. كان نور القمر يغطّي السّاحة، ويشقّ شعاعه المسافات بين نخلة وأخرى في غابة النّخيل القريبة من باحة المسجد، فتبدو أليفة وصديقة في تلك الليالي، كأنّها تشاطرنا فرحنا وغبطتنا.

وفي سنين لاحقة حين كنت أطلق العنان لمخيّلتي في التّأمّل فطنت إلى الذي يفعله ضوء القمر على غابة النّخيل: إنّ تدرّجات الفضّة الآتية من القمر البعيد على خضرة سعف النّخيل الذي يبدو داكناً في عتمة الليل تخلق ما يشبه اللوحة الملوّنة، وتجعل من النّخلة قريبة من الرّوح، قريبة من الفؤاد. حرصت -بعد أيام- أنْ أذهب إلى تلك السّاحة أمام المسجد. لم يكنْ الوقت ليلاً. لم يكنْ ثمّة قمر فضيّ يبدّد العتمة، كان الوقت عصراً والشّمس مازالت قويّة. كانت السّاحة ضيّقة وصغيرة جدّاً. أيجوز أنّها هي السّاحة نفسها التي كنّا نظنّها -صغاراً- بوسع الدّنيا وكانت لشدّة اتّساعها تصبح ملعباً لكرة القدم؟

ذُهلت. السّاحة هي نفسها، المساحة نفسها والبيوت المحيطة بها نفسها، سوى أنّ غابة النّخيل لم تعد في نضارتها التي عهدتها فيها، وهي توشك على الموات بعد طول عطش. لكنْ كيف ضاقت السّاحة أمام ناظري هي التي كانت لفرط اتّساعها فضاء جري لمهرٍ كنّاه نحن أنفسنا في تلك السّن الجميلة من العمر.

ما الذي تبدل فجعل منها ضيّقة، صغيرة، محدودة المدى؟ وودتُ حينها لو أنّي احتفظت بصورة السّاحة في الليالي المقمرة بمحاذاة غابة النّخل في ذهني، ليتني لم آت إلى هنا لأرى السّاحة كما هي في الواقع. ما أكبر المسافة بين مخيّلة الطّفولة وصرامة الواقع!

***

يقع بيتنا في أقصى طرف من الحيّ الغربيّ. آخر بيتٍ في القرية تقريباً، وراءنا كانت غابات النّخيل ومزارع البرسيم والخضروات. فيما بعد كلّما سمعت الشّطر الذي يقول: «بيته في آخر البيوت قدّامه عِليّهْ»، في أغنية فيروز: «يا مرسال المراسيل»، كنت أشعر بسعادة. لقد قرّرت بيني وبين نفسي أنّني المقصود بالأغنية، وبسعادةٍ لا تخلو من الادّعاء، سأكرّر ذلك كثيراً على مسامع الأصدقاء والصديقات.

استحضرت هذه الذّكرى ذات صباح باكر، طازج، خارج للتّو من بقايا عتمة الفجر، حين بدا لي التّحديق في غابة النّخيل من على شرفة فندق في مدينة العين بالإمارات قبل سنوات خلت، تحريضاً للعين على الاسترخاء وهي ترى هذا الامتداد الأخضر، النّضر، المغسول بندى الصّباح، واقتراحاً للتآلف مع تلك الذكرى التي تقفز من مستودع الطّفولة التي تبدو-الآن- قصيّة.

كان النّخيل، كما ذكرت، مُحيطاً بالبيت الذي قضيتُ فيه طفولتي وصباي، ومن على سطح البيت كان لغابة النّخيل المجاورة منظر كذاك الذي بدا لي من على شرفة الفندق، هذا الامتداد الذي يكاد يكون لا متناهياً للبواسق المثقلة بعذوق الرّطب الحمراء والصّفراء. ويوم كنّا ننسلّ صغاراً في الطّرقات الضّيّقة داخل الغابة المتراصّة بالنّخيل، لم نكن نفطن أبداً أنّ لهذه

الغابة كلّ ذلك الجلال لو أنّنا شاهدناها منْ علوّ.

فيما بعد جار الزّمن على النّخل الذي مات واقفاً بالمعنى الحرفيّ للكلمة الذي لا يحتمل مجازاً ولا تورية، ثمّ حلّ محلّه الإسمنت والقار. يوم أراد الشّاعر الشّهيد سعيد العويناتي -قبل رحيله الفاجع المبكّر- أنْ يستجير ممّا آل إليه الحال لم يجد سوى النّخل يبثّ له شكواه: «أيّها النّخل الخرافيّ استفق، قدْ غدونا غرباء!».

ثمّة في النّور المتسلّل إلى ثنايا الغابة في ذلك الصّباح الباكر في مدينة العين طقس حميم، لعلّه هو الذي حدا ببدر شاكر السّيّاب أنْ يشبّه عينيْ الحبيبة بغابتيْ نخيل ساعة السّحر. كانت النّخلة هي الامتداد الخرافيّ -في الرّمز وفي المعنى- بين البصرة والخليج.

يُروى أنّ أحد العراقيين الذين عاشوا قبل الميلاد سُئل: ما هي ثمار بلادكم؟! فأجاب التّمر، قيل له: ثمّ ماذا؟ قال التّمر أيضاً، ولمّا استغرب السّائل جوابه، راح الرّجل يوضّح خيرات النّخلة: نستظلّ بها منْ وهج الشّمس، ونأكل ثمرها، ونعلف ماشيتنا بنواها، ونقيم أفراحنا بسعفها، ونتّخذ من عصير تمرها عسلاً، ونصنع من جريدها وخوصها أسِّرتنا، ومن جذوعها خشباً لسقوفنا ووقوداً لطبخنا. وأوجز إعرابي فوائد النخلة فقال: «جذعها نماء، وليفها رشاء وكربها صلاء وسعفها ضياء وحملها غذاء».

لكنّ النّخلة -إلى هذا كلّه- تختزن في شموخها مقدرة هائلة على الصّبر في بيئة قاسية. إنّها كأهل ديارها الذين جُبلوا على تحمل قسوة مناخ صعب في أزمنة الكدح والشّقاء، بل إنّها كانت هبة الطّبيعة إليهم، أشبه بالأم الحنون التي مدّتهم بكلّ أسباب العيش والسّكينة والأمان في بيئة بدا كلّ ما فيها قاسياً وباعثًا على الخوف.

علينا بعد هذا كلّه تصوّر مقادير الحسرة التي تعصر القلب حين نمرّ أمام بقايا غابات النّخيل، وهي تعلن -من علياء شموخها- موتها الاحتجاجيّ على زمن أعمى فيه رنين الذّهب العيون والقلوب!

***

كانت جداول الماء المنحدر من عين عذاري تشقّ طريقها في أرجاء السّهلة، تخترق القرية لتذهب إلى المزارع القريبة، وكان عدد هذه الجداول كثيراً، إنّني أذكر على الأقل خمسة أو ستّة منها، كان أحدها يمرّ خلف بيتنا، والثّاني يمرّ أمامه، بيننا وبين كلّ واحد من هذه الجداول مئات قليلة من الأمتار ليس إلّا، وكانت هذه الجداول تتفرّع عن مجرى يأتي من العين الأمّ ذاتها، كان يسمّى الساب، كنّا نعرفه باسم «ساب عذاري». في أجزاء من هذه الجداول كان المجرى يتّسع على شكل قوس أو نصف دائرة أو حتّى دائرة، بعض هذه المواضع يخصّص لاستخدام الرّجال، حيث يغتسلون أو يتوضؤون للصّلاة، وبعضها للنّساء يستخدمنها لغسل الملابس أو الأواني.

وحول هذه المواضع كانت تنسج الحكايات الغريبة. النّسوة في جلساتهن الخاصّة يتحدّثن عن خرافات بوصفها واقعاً. أذكر أنّهنّ كنّ ينسبن لأحد الرّجال من سكان الحيّ أنّه حين عودته إلى بيته متأخّراً في الليل، رأى جنيّة تغتسل في الماء، رغم كونه ضريراً، وفي رواية أخرى رآها وهي تُحمّم أبناءها.

وكنت أصدّق هذه الحكايات التي كانت تثير لديَّ الخوف الشّديد منْ أنْ يصادفني جنيّ أو جنيّة وأنا في عودتي منْ أيّ مكان إلى البيت. ومازلت أذكر أنّني حين أقف أمام بيتنا في آخر الطّرف الغربيّ وأنظر إلى ذلك المكان الذي يقال إنّ الرّجل رأى فيه الجنيّة -حسب الحكاية- أشعر بمزيج من الخوف

والتّرقّب والفضول، وكان يمكن لسعفة نخلة يحركها الهواء أنْ تتراءى لي على شكل جنيّة، بل كنت أخشى الذّهاب وحيداً إلى جوار ذلك المكان.

وحين أذهب مع أمّي في زيارة إلى بيت عمّي أو أي بيت آخر يقع في الطّرف الآخر أتشبّث بيدها وملابسها وأُغرقها بالأسئلة عن شكل الجنيّة، وعن بيوت الجنّ وأين ينامون وماذا يلبسون، وفي الغالب لم يكنْ لديها أجوبة على أسئلة كهذه، لكنْ لم يكنْ يعوزها اختراع أجوبة لا تفعل أكثر من زيادة فضول ذهني الصّغير.

بعد أنْ انتهينا من السلام على المهنئين -ليلة عودتي- مشينا الطّريق المؤدّي إلى بيتنا القديم. هالني أنّ الطّريق إلى البيت قصير جدّاً. كانت تلك صدمة أخرى لما هو باقٍ في ذاكرتي. كان هذا الطّريق يبدو لي -وأنا طفل- طويلاً وأنّ وقتاً ليس بقليل يلزمني كيْ أقطعه.

انتابني ما ينتاب أياً منا حين يفصله الزمن عن مكان أو حدث.

يقال إنّه كلّما كبر الإنسان في العمر قلّ استعداده للشعور بالاندهاش إزاء الأشياء والظّواهر. بهذا المعنى تبدو الدّهشة لصيقة بالطّفولة. كلّ الأشياء تثير لدى الطّفل بداية تعرّفه عليها شعوراً بالدّهشة، والغرابة والرّغبة في المعرفة والتّملك، وكلما ازداد تعرّف الطّفل على الأشياء كلّما تناقصت قابليّته للاندهاش.

لكنْ تظلّ في الأشياء فتنة قادرة على إثارة الدّهشة والفضول. الشّعراء يعرفون ذلك جيّداً. عين الشّاعر -أو الفنّان عامّة- قادرة على النفاذ لما وراء القشرة الخارجيّة للأشياء، ما وراء السّطح أو ما تحت غبار الزّمن، والتقاط ذلك السّحر الغامض الباعث على الدّهشة. يمكن لبرعم زهرة في صبيحة نديّة يتفتّح أنْ يكون قصيدة أو لوحة أو أغنية. يمكن لرائحة عطرٍ غامض لا

تدري من أين ينبعث -أو تدري- أنْ تترك في النّفس وقع الفجاءة، يمكن لزخّات مطر عجلى أنْ تشعل القلب والوجدان، يمكن أيضاً للشّفق الأحمر الذي يسبق غروب الشّمس أو شروقها أنْ يكون بشارة دهشة، رغم أنّ هذا مشهد يتكرّر كلّ يوم.

ليس صحيحاً، في المطلق، أنّ الأشياء المتكرّرة، المألوفة فاقدة للإدهاش أو عاجزة عنْ إثارته. يمكن للمألوف أنْ يكون مدهشاً وخلّاباً ومُحرّضاً على الاكتشاف، وأنْ يجعل الحواسّ في حالة يقظة. حواسّ الإنسان تظلّ مستنفرة وحيّة ونشطة ويقظة إزاء المرئي المتدثّر بالغموض والغرابة. وأشدّ ما يتجلّى ذلك في علاقات البشر. ثمّة معدن من البشر أشبه بالحجر الكريم، يزداد لمعاناً كلّما لامسته.

هذا الطراز من النّاس يظلّ مدهشاً ومثيراً للفضول والانجذاب كلّما ازددت منه اقتراباً، وعلى خلاف ما يُظنّ من أنّ الشّخص يصبح عاديّاً حين تعرفه أو تألفه أو تقترب منه أو تشعر أنّه أصبح لك قريناً، فإنّ صنف البشر الأقرب إلى الأحجار الكريمة يظلّ آسراً مهما ازددت منه قرباً، وقابلاً لإثارة الدّهشة على الدّوام، ليس فقط لأنّه شخص يتطوّر وينمو ويتجدّد، وإنّما لأنّ روحه تنطوي على طاقة أشبه بالجاذبيّة، أشبه بالسّحر الغامض الذي يجعلك أسيراً له، لا بمعنى العبوديّة والانقياد، وإنّما بالمعنى الإنسانيّ الذي يجعل من هذا الانشداد طاقة خلق وإبداع وثراء.

ليس قصر المسافات وحده ما فاجأني ليلة ذاك، وإنْ ما كنت أظنّه درباً طويلاً ليس سوى بضع خطوات تقطع في دقائق قليلة للغاية، لا بل في ثوانٍ على الأرجح، وإنّما أيضاً مآل جداول الماء المتفرّعة من (ساب) عذاري، فقد أصبحت الأرض مستوية تماماً، ولم يعد هناك من أثر لمياه العين، وأظنّ أنّ

غياب هذه الجداول بالذّات هو ما خلق لديّ الإحساس بأنّ المسافة ضاقت أو تقاربت.

كنّا نعبر هذه الجداول بجسور مسوّاة بجذوع النّخل بإحكام بحيث إنّ السّيارات والعربات التي تجرّها الحمير كانت تمشي عليها دون خشية وقوعها، وتحت هذه الجسور الضّيّقة التي كنّا نسمّي مفردها (ردم)، كنّا -ونحن أطفال- نصطاد الضّفادع أو صغار السّمك التي تعرف باسم (حرسون). وكان فسيل النّخل ينمو من تلقاء نفسه بمحاذاة تلك الجداول.

الإضاءة في القرية بدت خافتة ومتواضعة، والنّسوة خرجن من بيوتهن لرؤية ذلك (الغريب) القادم. إنّ بعضهنّ يتذكّرنني طفلاً وصبيّاً أو في مقتبل الشّباب، وبعضهنّ سمع عنّي وعن غربتي الطّويلة، ونحن نمشي الهوينى باتّجاه بيتنا القديم الذي بات مهجوراً تماماً، منذ أن ابتاع ابن أخي الأكبر بيتاً جديداً له، وانتقل أبناء أخي الآخر إلى بيت جديد في مدينة حمد. أمام بيتنا وجدت الغرفة الوحيدة لأمّ محمّد، التي تعارفنا على تسميتها بـ(أسّوم)، تصغيراً لاسمها الأصليّ: أسماء. كانت وحيدة مع زوجها في تلك الغرفة المحاطة بسورٍ من سعف النّخيل.

كانت هذه المرأة تغشّي وجهها عنّا مذْ كنّا صغاراً وفق اعتقاد تؤمن به مفاده أنّ الصّبيّ يصبح بالغاً بعد أنْ تتجاوز قامته طول السّيف. ولست متأكّدا من سبب هذا الإلحاح على السّيف هنا -ولكنّه في ما أظنّ- مأخوذ من الإحساس المثقل بالذّاكرة الفاجعة لاغتيال الإمام الحسين حيث حُزّ رأسه عن جسده بالسّيف. قالوا لي إنّها وزوجها قد توفيا قبل سنوات طويلة، وأضافوا أيضاً سلسلة من أسماء رجال القرية ونسائها الذين توفّاهم الله خلال هذه السّنوات.

لم نلج بيتنا في ذلك المساء. لقد عقدتُ العزم على أنْ أفعل ذلك نهاراً. أنْ آتي يوماً وأتفقّد الغرف واحدة تلو الأخرى وأقف أمام كلّ زاوية لأستحضر كلّ ما تبقّى في ذاكرتي من أحداث ووجوه.

***

بعد غداء ذات يوم، حين فرغنا من استقبال المهنّئين الذين توافدوا علينا بالمئات على مدار أيام. ذهبنا من جديد إلى السّهلة لتحقيق ما كنت قد عقدت عليه العزم.

كان ذلك اختبار آخر للشّعور الذي ينتابنا حين نكون إزاء أشياء ووجوه عذّبنا الحنين إليها طويلاً. لقد كنّا نحنّ إلى رؤيتها من جديد، إلى الاقتراب منها، كأنْ نضع أقدامنا مثلاً على أشبار من الأرض عنت لنا شيئاً كبيراً، أو نلامس شيئا طالما حننا إليه بكلتا اليدين، وأنْ نحدّق في ملامح وجه انقطعنا عن رؤيته طويلاً.

لكن ماذا يحدث حين يتحقّق الحلم برؤية تلك الوجوه والأشياء والمطارح، فنراها رأي العين ونلمسها لمس اليد ونخطو على أشبار الأرض التي كانت حلماً بأقدامنا ذاتها التي وطئتها في طفولة غابرة أو صبا مرّ سريعاً.

هل ما نحسّ به هو إشباع لذلك الحنين، تحقيق له، تمكين له كي يكفّ عن أنْ يكون حنيناً، ويُحرّرنا منْ حرقته، ويجعل علاقتنا بالشّيء علاقة عاديّة، علاقة الإنسان بالأشياء في كلّ يوم؟!

هكذا يُفترض أو هذا ما يتوقّع المرء أنْ يحصل. لكنّ ذلك لا يحدث بهذه البساطة؛ لأنّ هذا الاقتراب من الأماكن والأشياء التي بعثت على حنين طويل، يفجّر دواخلنا حنيناً آخر إلى صورة تلك الأشياء والوجوه أوّل مرّة،

عندما خلّفناها وراءنا ورحلنا عنها، إلى صورتها قبل أنْ تتحوّل إلى ذكريات، حين نشعر أنّه كان لها مذاق آخر. لقد نسينا هذا المذاق، إنّنا فقط نحاول استعادة طعمه ولكنّنا لن نفلح أبداً.

الحنين الآخر الذي ينفجر لحظتها هو حنين إلى أمرٍ لن يعود، إلى وجوهٍ لن تعود. مبعث هذا النوع من الحنين هو ارتهاننا الأبديّ إلى ذكريات باتت ذكريات فقط. وهذا ما يفسّر حالة الأسى التي تنتابنا إزاء الأمكنة التي طوّحنا إليها الحنين ونحن نقف على أشبارها، فيما كنّا نتوقّع أنّ السّعادة هي وحدها الشّعور الذي سيطغى على تلك اللحظة. لقد أردنا أنْ نشفى من الحنين، أنْ نبرأ منه كما يبرأ المريض من مرض، فإذا بنا نصاب بلوثة حنين أخرى.

وقفت أوّلاً في فناء البيت، قفزت إلى ذهني لحظتها ذكرى شمس الشّتاء الوديعة في هذا الفناء. الأشياء تحت بقعة الشّمس الشتوية مختلفة. كأنّها تسلّط بؤرة الضّوء على أمرٍ بعينه، على زاوية بعينها وتهمل الباقي، فتبدو الأشياء تحتها مختلفة، كأنّ لها أبعاداً أخرى لا نراها عادة.

الوجوه تحت بقعة الشّمس الشّتويّة هي الأخرى مختلفة. طلّة العين مثلاً في وجه ترتسم على ملامحه خطوط الشّمس هي غيرها خارج تلك البقعة من الضّوء. بوسع القلوب الرهيفة في حال كهذا أنْ تمعن النّظر في ما لا تراه إلا حينها. لشمس الشّتاء فوق صفحة البحر عند مطالع الغروب حكاية أخرى أشبه بالملحمة، تماوج للألوان وتمازج، عناق حبيبين استسلما للوجد فلم تعد تفرّق ما إذا كانا اثنين أم واحد. لا بحر هناك ولا شمس، هناك قصيدة أخرى فيها من زرقة البحر أواخرها ومن ضوء الشّمس البقايا. كأنّهما يذهبان معاً إلى بيت بعيد، ولوهلة ينتابك الوهم بأنّ بيت البحر هو عند الشّمس، أنّه انسحب إلى هناك لينام.

وحين تنهمر عليك الحكايات يسافر بك السّؤال عمّا إذا كان شتاء الأشياء جميل في عينيك لأنّه جميل، أم أنّ الأمر آت من بصيرة الفؤاد؟ للفؤاد ما هوى، فلا تثقل على الهوى ممّا تريد، إنْ لم يكن للحبّ من مجدٍ سوى أنّه يجعل الأشياء مدهشة لكفاه، كفاه أنْ يأخذ بيديك بحنوٍّ فيريك الجانب الحلو في الدّنيا، فيجعل من نسمة ليليّة باردة قصيدة، ومن شمس شتويّة ناعسة فوق بحر استسلم للجمال أغنية.

وأنا واقف في زاوية غرفة البيت العتيق الذي نشأت فيه ولهوت في فنائه وتدثّرت بلحاف وقاني برد ليالٍ بعيدة، وجدتها خاوية ليس من الأشياء فقط، إنّما من المعنى الذي شكّلته في ذاكرتي. إنّها في الحقّ لا تبدو زاوية عاديّة شأنها شأن كلّ الزّوايا المتشابهة في الغرف الأخرى؛ لأنّي مشدود إليها بعلاقة خاصّة، لكنّ هذه العلاقة ذاتها تظلّ مبهمة.

عدت أدراجي من حيث أتيت، دون أنْ أشعر بأنّ حنيني قد أُشبع، وإنّما أحسسته قد تفاقم وتضاعف. ساعتها حرت ما إذا كان هذا شعور اللحظة أم أنّه شعور مزمن سيلازمني طويلاً، أو ربما ما حييت، كما لازمني «حنين أوّل مرة» الذي قصدت المكان لأبرأ منه فوجدته عصيّاً على العلاج. وسأحار أيضاً ما إذا كان هذا الذي أنا بصدده من شعور هو ذاته الحنين القديم وقد ارتدى شكلاً جديداً أم أنّه حنين آخر جديد؟!

***

ما أكثر الغرباء في هذه الدّنيا!

تبدو الغربة قدراً يلاحق الكثيرين الذين تطوّح بهم الأيام بعيداً عن أوطانهم وأهلهم والعوالم التي ألفوها. ما أكثر ما تضيق الأوطان بأهلها!

فتقذف بهم الحياة إلى مصائر تصنعهم أكثر ممّا يصنعونها.

ولكنّ هذا النّوع من الغربة يندرج في خانة الغربة الخارجيّة، الغربة عن المكان، عن مرابع الذّكرى الأولى، عن النّاس الذين معهم وبهم تشكّلت تفاصيل الحياة السّابقة، الحياة الأولى. أو الحياة في سنيّها الأولى التي يقال إنّ ما تتركه من آثار يظلّ طابعاً لشخصيّة الإنسان في مراحل العمر اللاحقة.

ولكنّ النّاس -كما تدلّ كلّ التّجارب- سريعو التّكيّف والتآلف مع الأمكنة. ثمّة قدرات خفيّة مدهشة لدى البشر لإقامة علاقة مع الأماكن الجديدة التي تأخذهم إليها الحياة. وكنت أظنّ أنّ من يتغرّب كثيراً تعلّمه الحياة أكثر، لولا أنّ كاتباً معروفاً باغت هذا الوهم عندي حين كتب مرّة أنّ الذين يتغرّبون عن أوطانهم، يتمتّعون -على خلاف الآخرين- بروح طفوليّة مدهشة، هي مزيج من السّذاجة ومن البراءة والدّهشة والحزن والحنين إلى المجهول.

المكان الجديد علينا، حتّى وإنْ بدا لنا للوهلة الأولى طارداً ومُنفّراً وانتابنا الإحساس بأننا عاجزون عن إقامة علاقة محتملة معه، سرعان ما يُعوّدنا على قبوله، حين ندرك أنّ إقامتنا فيه طويلة. بمرور الوقت يتخفّف المرء تدريجيّاً من تلك الأواصر القويّة التي كانت تشدّه لمكانٍ سابق ألفه واعتاد العيش تحت سمائه وبين ناسه؛ لأنّ أواصر جديدة تنشأ مع المكان الجديد. وما كنّا اعتقدناه طارئاً وباعثاً على الرّيبة والقلق والخوف سرعان ما يتحوّل إلى مقيم علينا التآلف معه.

مشكلتنا ليست أبداً مع الغربة الخارجيّة. إنّ ما ينخر نفس الإنسان من الدّاخل، ما يُربكها ويوتّرها هو الشّعور العميق بالغربة الدّاخليّة، غربة الرّوح. بل لعلّ الإنسان فيما يشبه التّحايل الذّهنيّ الذّكيّ يقيم نوعاً

من التّآلف الظّاهريّ الخارجيّ مع المحيط رغبة خفيّة منه في إخفاء غربته الداخليّة، منفاه الدّاخليّ الذي لا سبيل للخلاص منه إلا في هنيهات من العمر، هي لحظات التّحقّق النّفسيّ والعاطفيّ والوجدانيّ، وليس من طبيعة هذا النّوع من التّحقّق أنْ يكون مقيماً أو دائماً، إنّه سريع التّبدّد والزّوال، مُفرّغاً مكانه لقلقٍ جديدٍ.

مع الوقت يسوّي الإنسان أمر غربته الخارجيّة، لكنْ منْ يسوّي أمر غربتنا الدّاخليّة، منفانا الدّاخليّ، الذي يزداد وحشة؟!

***

بعد الفِناء ولجت غرفتي القديمة، التي لم يتبقّ فيها شيء من آثاري. في هذه الغرفة بالذّات قرأت كلّ تلك الكتب التي أثارت في ذهني حرقة الأسئلة بتعبير عبد اللطيف اللعبي، ودوّنتُ أولى محاولاتي في الكتابة، وأولى ما نشر لي من مقالات في الصّحف، وأولى رسائل الغرام. حين غادرت البحرين آخر مرّة عام 1975 كان بيتنا يتكوّن من طابق أوّل بخمس غرف ومطبخ ومرافق. الغرف وُزّعت على عدد أفراد الأسرة: غرفة لوالديّ، غرفتان لأخويّ، غرفة لي، ومجلس لاستقبال الضّيوف. كان كلّ شيء في مكانه، ولكنّهم بنوا طابقاً ثانياً. نظرة سريعة على المجلس، ثمّ وقفة متأنيّة أمام غرفتي التي فيها بالذّات كنت أسهر في بعض الليالي حتّى مطالع الصّباح أقرأ، أذكر أنّ أمّي كانت تقول لي: ستُصيبك هذه الكتب بالجنون. ستُجنّ، وأياً كان الأمر ففي بعض ما قالته شيء من الصّحة. لأنني لم أتخلص، بعد كل هذه السنوات، من لوثة تلك الكتب.

كان لأخي الأكبر مصدر قلق آخر من هذه الكتب، كان يحسّ أنّ شيئاً ما

خطر فيها سيؤدّي إلى التّهلكة، لذا فإنّه كان بين الحين والآخر يقوم بما يشبه حملات التّفتيش في تلك الغرفة حين لا أكون موجوداً، ويستخدم معارفه القليلة في التّعرّف على عناوين الكتب ليقدّر ما إذا كان حدسه صحيحاً أو لا، وفي بعض الحالات كان يستعين بأحد أبناء عمومتي للتّعرّف على محتوياتها؛ ليقوم بحرقها وإتلافها حفاظاً عليّ وخوفاً. كان شديد التّحذير لي من مغبّة هذا الذي أفعله: «ستودّيك هذه الكتب في داهية» – هكذا كان يقول.

لاحظت أنّ غابات النّخيل التي كانت تفصل البيت عن شارع السّيّارات الرّئيسيّ قد اختفت تماماً. لم يعد ثمّة نخيل. في السّابق كان الشّارع يبدو بعيداً، وكنّا نسمع أصوات السّيّارات على الطريق السريع كما لو كانت بعيدة؛ لأنّ غابة النّخيل الكثيفة تخلق إحساساً بهذا البعد وتجعل رؤية هذه السّيّارات غير ممكنة.

ثمّة درب ترابيّ ضيّق يقع وراء البيت ويؤدّي إلى الجزء الغربيّ من خليج توبلي، وهو الجزء الأكبر من الخليج الذي دمّر نهائيّاً بالدّفن. كان والدي يستأجر مزرعة من النّخيل والبرسيم والخضروات هناك، وكثيراً ما كنت أذهب طفلاً لأخذ وجبة الغداء للمزارعين العُمانيين أو القادمين من الإحساء بالمنطقة الشّرقيّة في السّعوديّة الذين كانوا يعملون عنده في تلك المزرعة.

كان هذا الدّرب ظليلاً بالنّخيل والأشجار الباسقة، فيما تمتدّ حقول البرسيم والخضروات وأشجار اللوز على مدى النّظر، وبمحاذاة الطّريق يمتدّ ذلك الجدول المتفرّع عن عين عذاري حتّى نهاية هذا الخطّ ليصبّ في النّهاية في خليج توبلي.

يمتلئ هذا الخليج بنباتات القرم، وهي نباتات بحريّة قليلة الارتفاع، جذوعها صلبة، كان الفلاحون يقتلعونها ويتركونها حتّى تجفّ تحت الشّمس

بالطّبع هذا يصحّ في الموسيقى وفي الغناء، لكنّه غالباً ما يُستخدم بشكلٍ تعسفيّ لمصادرة كلّ رأي مختلف، ولكلّ فكرة جديدة، ولكلّ امرئ يجرؤ على إثارة السّؤال من جديد في أمور باتت مسلّمات وبديهيّات لا يجوز الاقتراب منها.

لقد تغيّر كلّ شيء اليوم. فالخليج الذي كانت تعلوه النّوارس رُدم نهائيّاً. أقيم طريق سريع يقطع المسافة بين المنامة مروراً بمحاذاة عين عذاري وانعطافاً من هناك إلى مدينة عيسى التي لم يكن يؤدّي إليها من المنامة في البداية سوى طريق واحد. لقد اختفت معالم تلك الفترة نهائيّاً، وظلّت شذرات بسيطة منها.

درب ظليل كهذا أيضاً كان يؤدّي بنا إلى مدرسة الخميس الابتدائيّة التي تلقيت فيها الدّراسة في المرحلتين الابتدائيّة والإعداديّة. كنّا نقطع الطّريق عبر أزقّة السّهلة لننسلّ إلى درب النّخيل ذاك مشياً على الأقدام باتّجاه المدرسة مروراً بقرية عذاري التي كنّا نعرفها باسم قرية (أبو بهام).

كان ذلك طريقاً آمناً بالقياس إلى الطّريق السّريع، الذي كان الأهالي يحذّرون أبناءهم من التّوجه إلى المدرسة عبره خوفاً عليهم من السيارات المسرعة، ورغم أنّي لاحظت هذه المرّة أنّ المسافة بين السّهلة والخميس حيث تقع المدرسة ليست بعيدة كثيراً، ويمكن اجتيازها مشياً في نصف ساعة وربّما أقل، إلّا أنّنا كنّا نقطعها في أكثر من ساعة مليئة بالمشاجرات وبالمشاكسات وبالأحاديث البطيئة.

لكنّني لا أنسى ذلك الدّرب الظّليل أبداً، خاصّة في الأيام الأولى للسّنة الدّراسيّة أو في نهاياتها حيث تقلّ كثافة الدّروس ويصبح (التّزويغ) من المدرسة مُمكناً، وما أكثر ما كنا نتخلّف عن العودة إلى البيت بالذّهاب إلى عين

(أبو زيدان) الشّهيرة في طرف قرية الخميس ليس ببعيد عن مبنى المدرسة لنستحمّ فيها. لقد ضمرت هذه العين نهائيّاً شأنها شأن بقية العيون الطّبيعيّة التي كانت البحرين ملأى بها.

في العودة ظهراً من المدرسة، متجاهلين تحذيرات أهالينا، كنّا نقطع الشّارع الرّئيسيّ المحاذي لمركز شرطة الخميس ونقف أمام أحد المطاعم الصّغيرة الذي كان سائقو شاحنات الرّمل والكونكريت يتوقّفون لتناول الغداء فيه، وننتظر من يفرغ منهم من الغداء لنطلب منه توصيلنا إلى السّهلة، كان الكثير من هؤلاء يوافق فيما يمتنع البعض، وما إن يوافق السّائق حتّى نتدافع على مؤخرة الشّاحنة، نلقي أوّلاً بحقائبنا المدرسيّة فيها، ثمّ نتسلّق إليها بوضع أرجلنا فوق عجلاتها، ثمّ نرمي بأجسادنا إلى داخلها. لم يكن المشوار إلى محاذاة السّهلة بهذه الشّاحنات يستغرق سوى ثوان قليلة، وربّما بضع دقائق، ولكنّنا في أحيان كثيرة ننتظر بالسّاعات مَنْ يوافق مِنْ السّائقين على أنْ يأخذنا معه.

***

تُعدّ مدرسة الخميس واحدة من أقدم المدارس الحكوميّة في البحرين، لعلّها المدرسة الثّانية أو الثّالثة في تاريخ التّعليم النّظاميّ في البلاد. سمّيت المدرسة بهذا الاسم نسبة إلى سوق الخميس الذي يقع قريباً جداً من فنائها، وكان هذا السّوق واحداً من الأسواق التي تقام مرّةً في الأسبوع شأنه شأن سوق الأربعاء في المنامة مثلاً. في هذا السّوق تباع الحمير والمصنوعات اليدويّة من سعف النّخيل وبعض المواد الغذائيّة، وفي السّنوات الأولى لوجودنا في المدرسة كان هذا السّوق يُقام، لكنّه أخذ يضمحلّ في السّنوات الأخيرة حتّى

ليستخدموها وقوداً للنّار لأنّها بطيئة الاحتراق، كما أنّ ورقها كان يستخدم علفاً للجمال خاصّةً. كان أخوان من السّهلة الشّماليّة يعملان كمربيين لجمال عائدة لحاكم البلاد يومذاك، ويقودان قوافل الجمال كلّ مساء إلى ذلك الخليج لتقتات من أشجار القرم الخضراء التي تنبت في تلك البيئة من مياه البحر الضّحلة التي كانت تحدّها رغم ذلك غابات من النّخيل من جهات عدّة.

على هذا الخليج غالباً ما كنت أمشي وأنا صبيّ إمّا وحيداً أو في معيّة أخي جعفر، نراقب الغروب الذي تمتلئ فيه سماء ذلك الخليج بأسراب النّوارس والطّيور المهاجرة العائدة إلى بيوتها. ومن وحي أحد تلك المشاوير كتبت نصّ (خارج السرب) الذي جعلت منه فيما بعد عنواناً لأحد كتبي.

كانت الشّمس قدْ شرعت في التّواري، وكان ماء البحر هادئا يجري بسلاسة، وفجأة ظهر في السّماء سرب من الطيور كلّها كانت في وجهة واحدة، ولكن لفت نظري أنّ أحدها كان يطير في الاتّجاه المضاد. سألت شقيقي إلى أين تذهب هذه الطّيور؟. أجابني: «إلى بيوتها». ولكنّ منظر الطّير الوحيد ظلّ يثير فضولي. فسألته: ولماذا لا يذهب هذا الطّير معها؟ أجاب: إنّ بيته في الجهة الأخرى.

لا أذكر أنّ هذه الإجابة أشفت غليلي تماماً، لقد فكّرت فيما بعد، ولماذا يكون بيته في الجهة الأخرى؟ هل تراه غاضباً من أمرٍ ما؟ هل ترى الطّيور الأخرى عاقبته لذنبٍ أتاه، فأجبرته على الذّهاب في الوجهة الأخرى. كانت تلك أسئلة تليق بطفل على كل حال.

ستمرّ سنوات بعد ذلك، وسنعتاد على العبارة الشهيرة في وصف من يخرج على الإجماع العام: يغرّد خارج السّرب، وغالباً ما يحمل هذا التّعبير شحنة سلبيّة تجاه هذا السّلوك، فالمطلوب من الجميع أنّ يغردوا في السّرب ذاته؛ لأنّ الغناء خارجه نشاز.

اختفى، غير أنّ المصاطب الحجريّة التي كان الباعة يستخدمونها ظلّت في مكانها حتّى أنهيتُ الدّراسة في تلك المدرسة.

ليس بعيداً عن المدرسة وعن السوق يقع مسجد الخميس، واحد من أعرق وأقدم المساجد الإسلاميّة في البحرين. حسب الرّوايات المتواترة فإنّه بني في عهد الخليفة الأمويّ الأخير عمر بن عبد العزيز، لكنّني استمعت مؤخّراً إلى الباحث في التّاريخ الدّكتور عيسى أمين ينفي هذه الرّواية كليّةً ويرى بأنّ هناك مبالغة كبيرة في هذا القول، فعمر هذا المسجد أقلّ من ذلك بكثير، حيث يعود في تقديره إلى عهد الدّولة الصّفويّة، لكنّه يعدّ تحفة عمرانيّة جميلة.

في فترات (التّزويغ) من المدرسة التي أشرت إليها في بدايات العام الدّراسيّ أو نهاياته كنّا نتسلّل إلى هذا المسجد ونصعد منارتيه العاليتين عبر السّلم الدّائري في داخل كل واحدة منهما لنصل إلى أعلى شرفة في كلّ واحدة من المنارتين. أذكر أنّ السّلّم كان شديد العتمة، قليلون منّا من كانوا يجرؤون على الوصول إلى الشّرفة العليا.

بعد أنْ أنهيت المرحلة الإعداديّة في مدرسة الخميس انتقلنا إلى مدرسة النّعيم الإعداديّة الثّانويّة، هناك أنهيت الصّف الأوّل الثّانويّ فقط. كانت مدرسة النّعيم مدرسة نموذجيّة جديدة، أمّا فصولنا فتقع على البحر مباشرة، ومن وراء النّوافذ الزّجاجيّة نُبصر هذا البحر الذي لا يفصلنا عنه سوى ممرّ صغير ثمّ سور من الأسلاك. كنّا نمشي في هذا الممرّ في أوقات الفسح.

أذكر أنّ مدرّساً فلسطينيّاً مسيحياً اسمه (إيميل) كان يدرّسنا مادة الفيزياء، وفي حصّته عن البصريّات ذكر أنّ شبكة العين ترتاح حين تحدّق بعيداً، فكلّما اتّسع مدار النّظر كلّما كانت العين أكثر ارتياحاً، هذه العبارة رسخت في ذهني، وتَشكّل لديّ شعور بأنّه كان يحرضنا على التّحديق في

البحر الذي يمتدّ لا متناهيا خلف شبّاك الفصل، ومازال هذا الشّعور يحملني على التّحديق في ما تبقّى من امتداد البحر كلّما قُيّض لي ذلك.

البحر أصبح بعيداً جدّا عن المدرسة اليوم، وهو ما انفكّ يبعد عن مركز المدينة، أمام زحف رمال الرّدم وأبراج الكونكريت والزّجاج.

***

بعد مدرسة النّعيم، انتقلت إلى مدرسة الحورة. شاءت مصادفة جميلة أنّ النّاقد والأديب المعروف أحمد المنّاعي عضو أسرة الأدباء والكتّاب وأحد أبرز مؤسسيها كان يدرّسنا اللغة العربية. من حصّة التّعبير الأولى لاحظ ملكتي في الكتابة، وبعد أنْ فرغت من قراءة موضوع التّعبير الأوّل، قال لي إنّه سينشره في مجلة (هنا البحرين) التي تصدر عن وزارة الإعلام. لقد شجّعني كثيراً، وحثّني على متابعة القراءة والاطّلاع ووجهني لقراءة كتب بعينها ذات صلة بالنّقد الأدبيّ.

كانت الحركة الأدبيّة الجديدة يومذاك في حالة سجال حول مفاهيم كثيرة كالالتزام والغموض والدّور الاجتماعيّ للأدب. ومن وحي تلك المناقشات كتبت مقالة أعطيتها للأستاذ أحمد الذي قال لي بعد أيام إنها ستنشر في العدد القادم من مجلة (صدى الأسبوع).

حين صدر العدد، وجدت المقالة تتصدّر الملفّ الثّقافيّ في المجلة، ورحت أحدّق مبهوراً سعيداً في اسمي وهو مكتوب بخط جميل وكبير تحت عنوان المقالة. لقد كانت تلك خطوتي الأولى نحو عالم الصّحافة الذي أمتنّ بولوجي فيه إلى هذا الأستاذ الجليل. فيما بعد ثابرت على النّشر في المجلّة حتّى حلول العطلة الصّيفيّة.

بعد أنْ أنهيت الامتحان الأخير لم أتوجّه إلى البيت، وإنّما إلى مكتب مجلة (صدى الأسبوع) الواقع في شارع العلاء الحضرميّ المتفرّع عن شارع باب البحرين. هناك قابلت علي صالح الذي كان يشغل منصب مدير تحرير المجلّة. أفصحت له عن رغبتي في العمل في المجلّة كمتدرّب، ولاحظت أنّه أبدى حماساً للفكرة قائلاً إنّ إدارة المجلّة راغبةً في استكشاف مواهب صحفيّة واعدة بين طلبة الثّانويّات. أمهلني قليلاً ليستشير علي سيّار في الموضوع، ثمّ عاد ليدعوني إلى مكتب رئيس التّحرير.

علي سيّار أحد روّاد الصّحافة والعمل الوطني في البحرين في الخمسينيّات، وعاش وعمل لسنوات في الكويت بعد القضاء على حركة هيئة الاتّحاد الوطنيّ. كنت -حينها- في نحو السّابعة عشرة من عمري، نحيف البنية، ضئيل الجسم. حين دخلت المكتب بادرني علي سيّار بالقول: حين قرأت مقالاتك ظننتك أكبر عُمراً وأضخم جسماً، ثمّ عبّر عن ترحيبه بانضمامي للمجلّة، قال: ليس مطلوباً منك في البدء سوى أنْ تقرأ وتتابع آليّة العمل وسنكلّفك تباعاً ببعض المهامّ، وهكذا وجدت نفسي بعد حين لم يطل منخرطاً في مهنة الصّحافة.

كانت (صدى الأسبوع) واحدة من صحيفتين أسبوعيّتين رئيسيّتين في البلاد يومذاك، أما الثّانية فكانت (الأضواء) التي يرأس تحريرها المرحوم محمود المردي. وفي (صدى الأسبوع) يعمل عقيل سوار وعلي صالح وهما من أبرز الأسماء الصحفيّة حينها، أما إبراهيم بشمي فكان يعمل في (الأضواء).

كُلفت ببعض التّغطيات الصّحفيّة وتدرّبت على إعداد وكتابة التّحقيق الصّحفي، إضافة إلى أنّني أشرفت على الصّفحة الثّقافيّة في المجلّة لعدة سنوات. كانت البلاد يومذاك تضجّ بالأحداث السّياسيّة، فقد خرجت للتّوّ

صحافة السّبعينيّات في البحرين كانت مختلفة عن الفترة التي تلتها بعد تعليق الحياة البرلمانيّة والدّستوريّة، ورغم أنّ الفترة اللاحقة شهدت صدور صحيفتين يوميّتين هما (أخبار الخليج) و(الأيّام)، لكنّ الديناميكيّة السّياسيّة والثّقافيّة التي طبعت مرحلة السّبعينيّات انعكست بدورها على أداء الصّحافة ومستوى معالجاتها، وكان لهذه الصّحافة بالذّات دور مهم في تفعيل الحركة الأدبيّة عبر توسيع مساحة النّشر للنّتاجات الإبداعيّة الجديدة للمبدّعين الشّباب.

***

حين سافرت للقاهرة للدّراسة الجامعيّة فيها أدهشني ضجيج المدينة. بالنّسبة لكلّ عربيّ فإنّ القاهرة تشكّل ذاكرة حتّى لو لم يكن قد رآها قبل ذلك. إنّ السّينما المصريّة والأغاني المصريّة طالما ألهبت خيالنا منذ الصغر، ولم تكن اللهجة المصريّة غريبة على مسامعنا منذ صفوف المدرسة الابتدائيّة التي تلقينا فيها معارفنا على عدد من الأساتذة بينهم الكثير من المصريّين. مصر إلى ذلك هي جمال عبدالنّاصر بكلّ الذي كان يمثّله هذه الرّجل في مخيّلتنا وفي حياتنا وفي تكويننا.

ولتأثري أنا بشخصية جمال عبدالناصر حكاية. ففي مكان ليس ببعيد عن بيتنا في السّهلة، كان يقع مستودع يعود لأحد رجال الأعمال المعروفين في البحرين، وكان أحد المزارعين العمانيين الذين يعمل في مزرعة والدي يبات عند حارس هذا المستودع الذي كان هو الآخر عُمانيّا. وضمن محتويات هذا المستودع أعداد كثيرة من مجلات مصريّة قديمة تعود للخمسينيّات من القرن العشرين: (آخر ساعة)، (المصوّر)، (روز اليوسف).

الألف من الفتيان والفتيات. كنت قد سجّلت بعد جهود في كليّة الحقوق في جامعة القاهرة، ولكن ما أعطيته للدّراسة كان قليلاً جدّاً بالقياس لما أعطيته للنّشاط الطّلابيّ.

كنّا نسهر الليل في مناقشات سياسيّة ساخنة نبدأها في مقر الاتّحاد الوطنيّ لطلبة البحرين بشارع الدكتور السّبكي في الدّقي، ثمّ نستأنفها في أحد المقاهي أو المطاعم التي نذهب إليها للعشاء. هذا الجوّ الطّلابي الصّاخب استهواني، وكأنّ روح الانتماء لجماعة طلابيّة كبيرة تشاركني الرّأي، ووضعي داخل هذه المجموعة بصفتي أحد نشطائها يخلق في النّفس شعوراً بالرّضا والتحقق، وكان التّحضير للأنشطة الطّلابية الكبرى كالحفلة السّنويّة التي تتضمّن مهرجانات خطابيّة وندوات وحفلات غنائيّة وموسيقيّة تجعل من وقتنا مليئاً دائماً بالحركة والنّشاط.

الجوّ الاجتماعيّ المنفتح النّاجم عن الاختلاط بين الجنسين في الأنشطة وفي الفعاليات والنّدوات حرّرنا من الكثير من الخجل ومن العقد الاجتماعيّة والنّفسيّة، حين تنشأ علاقات صحيّة ذات طابع أخويّ ورفاقيّ تكسّر الكثير من الحواجز والقيود، وكان هذا المناخ المنفتح بعيداً عن الاعتبارات الاجتماعيّة الصّارمة في البحرين يجعل الجو آسراً وجذّاباً.

بالنّسبة للكثيرين من أبناء جيلنا فإن السّبعينيّات تمثّل مرحلة مزهرة، فهي الفترة التي بدأت فيها أذهاننا تتفتّح على الحياة وأسئلتها. كان جيل هذه الفترة حالماً بالمعنى الدّقيق للكلمة، ولكنّ السّبعينيّات هي نفسها كانت بداية العدّ العكسيّ للنّهوض الوطنيّ والقوميّ، وكان توقيع اتفاقيّات (كمب ديفيد) أحد عناوين هذا التّراجع، وبهذا المعنى كان الجيل الفتيّ في السّبعينيّات -جيلنا نحن- يعيش ما يشبه صحوة الموت دون أنْ يدري، كان

يوهم نفسه أنّ الهزيمة التي حدثت في 1967 مؤقّتة، وأنّها قد تشكّل قاعدة أو منطلقاً لإعادة الثّقة بالنّفس وإحراز النّصر. هذا على الصّعيد العربيّ العامّ، أمّا على الصّعيد الخليجيّ فإنّ السّبعينيّات هي مرحلة الاستقلال وتشكّل الدّول الحديثة وبناء مؤسّساتها.

هذه الفكرة كانت محطّ تأمّلي، إلى أن قرأت كتاب الكاتبة المصريّة أروى صالح التي انشغل الوسط الثّقافيّ والفكريّ في مصر وفي خارجها بحادثة انتحارها قبل عدة سنوات، عنوان الكتاب هو: «المبتسرون - دفاتر واحدة من جيل الحركة الطّلابيّة»، وأروى صالح كما هو واضح من عنوان الكتاب، شابّة تنتسب إلى هذا الجيل الذي عاش كلّ تلك التّمزّقات والمخاضات، أما الكتاب فهو شهادة مصاغة بلغة عذبة وأسلوب سلس وعبارة شفّافة رشيقة لامرأة حالمة، فجاء جامعاً بين عذوبة المرأة وجمال الحلم، ليقدّم شهادة بشر كانوا صادقين في البحث عن قيم العدالة والحريّة هم الذين يعتبرون أنفسهم نتاج العهد النّاصريّ الذي أمّن لهم التّعليم المجانيّ في المدارس والجامعات، وسلّحهم بالأمل.

لكنّ عبد النّاصر قد رحل والنّظام الذي أقامه تعرّض لنكسة بعيدة النّتائج، لذا انخرط هذا الجيل، جيل السّبعينيّات في حركة واسعة تطالب بالحرب ضدّ إسرائيل للثّأر للكرامة الوطنيّة واستعادة المحتلّ من الأراضي، كأنّ هذا الجيل الذي طمح للقطيعة مع الواقع حمل كلّ ما في هذا الواقع من مثالب، فلم يجد أولئك الحالمون من أبناء هذا الجيل سوى الشّعور بالغربة وسط القوى التي عدّت نفسها بديلاً للهزيمة حين وجدوا أنّ غالبية أفراد هذه القوى تبحث عن حلّ لذواتها العاطلة بعد أنْ أدركت البون الشّاسع بين الحلم وبين الواقع، بن المرتجى والممكن.

من التّحرّك العمّاليّ الواسع الذي طالب بالحريّات النّقابيّة وتحسين مستوى معيشة الشّغيلة، وكانت البلاد تتهيّأ لانتخابات المجلس التّأسيسيّ الذي أُقرّ ووضع أوّل دستور في تاريخ البحرين، وتلاها انتخابات المجلس الوطنيّ، وكنت في موقعي في المجلة أتابع كلّ تلك الأنشطة والفعاليات، إضافة إلى صلتي المباشرة بالحركة الأدبيّة والثّقافية عبر أنشطة أسرة الأدباء والكتّاب التي أصبحت عضواً فيها.

ومن أكثر ما أعتزّ به تغطيتي لجلسات المجلس الوطنيّ في الفصل التّشريعيّ الأوّل، كانت تلك تجربة ثريّة؛ لأنّها جعلتني على صلة مباشرة بالحراك السّياسيّ والبرلمانيّ في البلد.

لا بد أن أشير هنا إلى حادثة فصلي، أنا وخمسة زملاء آخرين لي، من المدرسة بصورة نهائية بموجب خطابات بتوقيع وزير التربية والتعليم آنذاك الشيخ عبدالعزيز بن محمد آل خليفة أرسلت بالبريد المسجل إلى بيوتنا، وموجهة إلى أولياء أمورنا، محملة إياهم مسؤولية تواجدنا في المدرسة بعد هذا القرار، وجاء ذلك على خلفية تزعمنا لتحرك مطلبي لطلبة الثانوية انطلقت شرارته من مدرستنا، أي مدرسة الحورة، وجاء تحت تأثير التحرك العمالي المطالب بحرية العمل النقابي، ما حملني على أن أنصرف إلى العمل بصفة دوام كامل في (صدى الأسبوع)، فيما أكملت، أنا وزملائي الخمسة الآخرون، دراستنا الثانوية بنظام الانتساب الذي كان يطلق عليه حينها نظام المنازل، تفريقاً للمتقدمين لأداء الامتحانات عبره عن بقية الطلبة المنتظمين في المدارس.

بعد أن قدمت امتحانات الثانوية العامة - القسم الأدبي، غادرت البحرين للدّراسة في القاهرة في أكتوبر 1974، وحين عدت في الصّيف التّالي لقضاء الإجازة الصّيفيّة سرعان ما عدت للعمل في (صدى الأسبوع).

أروى صالح، هذه المرأة الشّابة الرّقيقة، الشّفّافة الحالمة لم تحتمل مسعى التّدجين ومصادرة الحلم، فاختارت أقصر الطّرق حتّى لا تقع ضحيّة التّناقض بين الرّوح وبين الحاجة، ولم يكن هذا الطّريق سوى الانتحار، ولكنّ انتحارها ليس دلالة خيبة جيل، وإنّما تعبير عن طموح هذا الجيل الذي مسّه سحر الحلم، وستلاحقه دوماً «ذكرى الخطيئة الجميلة، لحظة حريّة، خفّة لا تكاد تحتمل لفرط جمالها، تبقى مؤرّقة كالضمير»، كما عبّرت في كتابها.

بعد العام الدّراسيّ الأوّل في القاهرة، سافرت للبحرين لقضاء عطلة الصّيف. هناك عدت لمجلتي الأثيرة (صدى الأسبوع)، وأذكر أنّ أوّل عدد نشرت لي فيه مقالة -بعد عودتي- كان هو العدد الأخير للمجلة في ذلك الصّيف، حين أوقفت بقرار إداريّ من وزارة الإعلام.

لم يكن مقالي هو السّبب في ما حدث، ولكنّه مع ذلك أدرج ضمن الأسباب التي أدّت إلى إيقاف المجلّة. رئيس تحرير المجلّة وصاحبها علي سيّار كان يقضي إجازته الصّيفيّة خارج البحرين، وكان إبراهيم بشمي يشغل وقتها مركز مدير التّحرير. في ذلك الوقت الملبّد بغيوم التّوتّر السّياسيّ نشرت المجلة بيان (كتلة نوّاب الشّعب) الذي شرحت فيه موقفها من مقاطعة الحكومة لجلسات المجلس الوطنيّ الذي رفض بالإجماع قانون أمن الدّولة، كما أنّ إبراهيم نفسه كتب تحقيقاً موسّعاً عن العمالة الآسيويّة في البحرين والخليج تحت عنوان مثير ومعبّر: «تجارة الرّقيق الجديدة»، أما مقالي فكان تحت عنوان: «عهد عبدالنّاصر محور صراع اليمين واليسار في مصر».

كان ذلك المقال حصيلة متابعاتي للمناقشات الإعلاميّة والصّحفيّة الدّائرة في مصر خلال العام الدّراسيّ الذي قضيته هناك، واستندت فيه إلى ما ينشر في وسائل الإعلام المصريّة، بينها كتاب للمرحوم فيليب جلاّب

بعنوان: «هل نهدم السّد؟» في إشارة ساخرة للحملة التي شنّتها قوى اليمين المصريّة ضد مشروع السّد العالي كمدخل للهجوم على العلاقات بين مصر النّاصرية والاتّحاد السّوفيتيّ الذي موّل بناء السّد، كما أشرت إلى مسرحيّة فايز حلاوة: «يحيا الوفد»، التي أدّت تحيّة كاريوكا دور البطولة فيها، واندرجت هذه المسرحيّة أيضاً في نطاق حملة التّعريض بالعهد النّاصريّ.

بعد ذلك بنحو عشرين عاماً سأقرأ انطباعات سجّلها إدوارد سعيد عن لقاء أجراه مع تحية كاريوكا في أواخر حياتها عبّرت فيه عن عميق ندمها على دورها في هذه المسرحيّة، وقالت إنّ زوجها السّابق حلاوة هو الذي ورّطها فيها.

حين أوقفت (صدى الأسبوع) جرى اعتقالنا: إبراهيم بشمي وأنا، مكثت أنا في السّجن أسبوعين أو ثلاثة. كانت تلك تجربة التّوقيف الأولى في حياتي، قبل أنْ يطلق سراحي بكفالة ماليّة، لأمثل أمام المحكمة بتهمة كتابة مقال يعكّر صفو العلاقات بين البحرين ودولة عربيّة شقيقة، والمقصود هنا مصر.

استندت لائحة الاتّهام المقدّمة من النيابة العامّة إلى بند في قانون المطبوعات والنّشر، بالإضافة إلى تهمة أخرى بحيازة أوراق ومنشورات ممنوعة، ولم تكن تلك الأوراق سوى مجلّات وكتب صودرت من بيتنا أثناء تفتيشه ساعة اعتقالي. تولّى الدّفاع عنّي المحامي جاسم المطوّع الذي أبرز الصّحف المصريّة وكتاب فيليب جلّاب المنشور في مصر، ليثبت أنّني في مقالي استندت إلى مواد تنشر في مصر ذاتها، ولا يمكن لها أنْ تعكّر صفو العلاقات على نحو ما ذهبت إليه لائحة الاتّهام، كما أنّه برّر وجود الكتب والمجلّات التي صنّفت كمنشورات في بيتي بالتّأكيد على أنّها عدّة الصّحفيّ،

أذكر أنّ هذا المزارع أحضر لي كميّة من هذه المجلّات التي رحت أتلقف سطورها وصورها. كان جمال عبدالنّاصر هو الموضوع المهيمن في تلك المجلّات بصوره التي تبرز ما في شخصيّته المهيبة بقامته الطّويلة من كاريزما وجاذبيّة وقوة حضور. بعض تلك المجلّات تعود للفترة التي تعرّض فيها جمال عبدالنّاصر لمحاولة الاغتيال الشّهيرة في المنشيّة، وكانت صفحات كثيرة من تلك الأعداد كرّست للحديث عن شخص عبدالنّاصر وطفولته وشبابه وحسّه الوطنيّ العالي وعدائه العميق للاستعمار البريطانيّ.

القواعد العسكريّة البريطانيّة كانت يومها موزّعة على مناطق البحرين، والبلد تضجّ بالشّعور الوطنيّ المعادي للاستعمار، وكان من شأن تلك المقالات أنْ تلهب حماسي. وأذكر تلك الحال التي انتابني يومها حين وجدت نفسي مأخوذاً بشخصيّة هذه الرّجل للدّرجة التي رحت فيها أخطّ اسمه بالطبشور على لوح الفصل الدّراسيّ في الفترة بين حصّتين.

الولع بجمال عبد النّاصر قادني إلى الفكر التّقدميّ والدّيمقراطيّ، عن طريق ابن عمتي عبّاس البحاري العضو في جبهة التّحرير الوطنيّ، فمن خلاله استطعت الاطّلاع على كتب وروايات ذات نزوع يساريّ. هذه القراءات لم تؤثّر أبداً على محبتي العميقة لجمال عبدالنّاصر وفخري به. ومثل الكثيرين يومها بكيت بحرارة حيث سمعت من الراديو خبر موته، ومن المفارقات أني جئت القاهرة في ذروة الحملة على العهد النّاصري في منتصف السّبعينيّات، يوم راحت القوى الكارهة للنّاصريّة تصّفي حسابها مع الرّجل وعهده بعد غيابه.

أكثرما استحوذ على اهتمامي فترة إقامتي في القاهرة هو العمل الطلابيّ في صفوف الطّلبة البحرينيّين الذين كانت أعدادهم تقدر بالمئات وربما فاقت

متسائلاً هل يمكن مقاضاة طبيب بتهمة حيازة مخدّرات لأنّ في عيادته موادّ يستخدمها لتخدير مرضاه لزوم علاجهم؟!

حكمت المحكمة ببراءتي من التّهمتين، وحين أُعيد إليّ جواز سفري بعد مراجعات عدةّ شعرت بسعادة غامرة لأنّني سأعود للقاهرة التي أحبّها مرّة أخرى. كنت قلقاً بعض الشّيء من أنْ تؤثّر التّهمة التي ألصقت بي في أمر وجودي في مصر، ولكنّ اجتيازي لإجراءات الهجرة في مطار القاهرة الدّوليّ أسعدني كثيرا، حيث اطمأننت إلى أنّ الأمور مرّت بسلام.

***

لم تطل فرحتي كثيراً.

ففي غمرة هذه الحياة الثّريّة، الحافلة، الصّاخبة، الحميمة حدث ما كنت أخشاه، أنْ أترك القاهرة قسراً. كان ذلك اختباري الأوّل في فقد الأمكنة. لم أكن قد اختبرت بعد معنى أنْ يقتلع الإنسان من مكان يحبّه ويألفه وتشدّه إليه أقوى الوشائج.

بعد أقلّ من ستة شهور، وكنت حينها أقطن مع مجموعة من أصدقائي وزملائي في شقّة بشارع مصدّق حين دقّ جرس الشّقّة ذات صباح. فتح أحمد الذّكير الباب ليشاهد شرطيّاً في زيّه الرّسميّ يسأل عني. قمت من فوري إليه، وكان مايزال واقفاً على الباب، ليسألني هل أنت فلان؟ فأجبت بنعم، فسأل عمّا إذا كان بوسعه أنْ يدخل الشّقّة. «تفضّل» قلت له.

حين استوى إلى مقعد في الصّالون طلب جواز سفري، تصفّحه ثمّ طلب منّي أنْ أرتدي ملابسي لأرافقه إلى مجمّع الجوازات في ميدان التّحرير لبعض الإجراءات. لم أقدّر أبعاد الموضوع إلّا بعد أن جلست بمحاذاته في

كانت المنحة تتضمّن -بالإضافة إلى المصروف الشّهريّ- تذكرة سفر سنويّة: البحرين - القاهرة - البحرين، وكانت تذكرة العودة في البيت، ولكنّني قرّرت المناكفة: مَن يريد ترحيلي فليدفع ثمن التّذكرة.

كان يوم خميس، وكانت السّاعة قد شارفت الثّانية ظهراً، أي وقت نهاية الدّوام. قال لي الضّابط وهو يرمقني وجواز سفري بين يديه يقلّبه: أنت بذلك تعقّد الأمور. ثم طلب منّي الخروج ثانية إلى الممرّ. ساعة أخرى من الانتظار وربّما أقل أو أكثر، حين جاءني عسكريّ وقال تفضّل معنا.

هبطنا السّلالم العالية الطّويلة لمجمع التّحرير ونزلنا إلى الباحة الخارجية، سألته إلى أين؟! قال إلى المواصلات العامّة، وبعد تدقيق فهمت أنّه سيأخذني بالأتوبيس أو ما شابه إلى سجن القلعة، إلى سجن قلعة محمد علي الشّهير، ولم تكن لديه أيّة أجوبة أخرى على أسئلتي الكثيرة، كلّ ما يعرفه أنّه طلب منه أن يأخذني إلى هناك وانتهى الأمر.

رجوته بوسائل عدّة أنْ أستخدم التّلفون. حيث يعمّ الفقر والبيروقراطيّة تسهل سبل التّحايل على صرامة الإجراءات. وافق الرّجل على رجائي، ومن هاتف أحد الأكشاك المجاورة اتّصلت بشقة صديقنا طالب الطب يومها، الطبيب حالياً علي عبدالصالح، وهوالوحيد، بيننا، الذي كان بشقّته تلفون. لم يكن علي بالبيت، لكنّ شقيقته -الطّالبة هي الأخرى في القاهرة- ردّت عليّ، فطلبت منها أنْ تخبر أخاها أنّني في سجن القلعة، وسددت سمّاعة التّلفون تحت ضغط وإلحاح وفزع الشّرطيّ الذي وقف بمحاذاتي ملّحاً عليّ بسرعة الانتهاء.

أخرج العسكريّ قيداً حديديّاً من جيبه، أوثق طرفاً منه في يده وأوثق الطّرف الثّاني في يدي، وصعدنا هكذا معاً إلى باص المواصلات العامّة

قبل أقل من شهر في القاهرة كنا نجمع البيانات التي تطالب بإطلاق سراحه هو ورفاقه. لذا كانت مفاجأة سارّة في يوم توقيفي الأوّل أنْ يكون جاري هو يوسف ذاته. تحدّثنا كثيراً، فكان شغوفاً بمعرفة ما يدور في البحرين وخارجها، هو الذي دخل السّجن منذ يونيو 1974، أيْ قبل أكثر منْ عام.

في المساء عندما أخرجونا إلى الحمّام، استطاع يوسف أنْ يدسّ في غرفتي علبة مربّى ونسخة من القرآن الكريم. كان يوسف قد أُحضر من سجن جزيرة جدا إلى سجن القلعة للمقابلة الشّهريّة مع عائلته، وقال لي في الليل إنهم لن يتركوه هنا كثيراً، ورجح أن ينقلوه في صباح اليوم التالي إلى جدا. كانت نسخة القرآن التي أهداني إياها يوسف هديّة ثمينة. كنت قدْ تعلّمت قراءة القرآن كشأن أقراني قبل الذّهاب للمدرسة في بيت امرأة نسمّيها المعلّمة. كنّا عشرات من الأطفال، فتياناً وبنات نتجمّع في فناء بيت تلك المرأة التي تظلّلها شجرة نبق «كنارة» وارفة الظّلال تتجمّع فيها العصافير.

بعد شهور من دخولي للكتّاب دخلت المدرسة، ولمّا استطعت تعلّم قراءة وكتابة الحروف سرعان ما أصبحت قراءة القرآن ممكنة وسهلة بالنّسبة لي، ولكنّني لم أتقن التّلاوة أبداً. كان والدي قارئاً مثابراً للقرآن رغم أنّه لم يتعلّم الكتابة، وأولى علاقتي بالقراءة نشأت عبر صندوق الكتب الدينيّة العائد له. وفي كلّ سنة في شهر رمضان كنت أقرأ القرآن في مجلس البيت، كانت مآخذ والدي على تلاوتي كثيرة: ما الذي تعلّمته عند المعلمة أو في المدرسة – هكذا كان غالباً ما يُقرّعني. انهمكت في الأيام التّالية في التّمعّن في النّصوص القرآنيّة، مستثمراً الوقت الطّويل الذي كان يمرّ بطيئاً.

***

سيّارة التّاكسي التي أقلتنا إلى هناك. في منتصف الطّريق ونحن نقطع كوبري قصر النّيل قال لي: «النهارده هاتترحل من هنا».

ساهماً استمعت إليه، قبل أنْ تذهب عيني فوراً إلى النيل. تذكّرت ما كنت قد قرأته لأحد المناضلين المصريّين عن تجربته في السّجن، وهو يصف المشاعر المعذّبة التي اجتاحته وهو يرى النّيل عندما كانوا ينقلونه ليلاً من سجن إلى آخر، وكانت المراكب المضاءة تتهادى فوق النّيل، فتمنّى لو أنّه حرّ، لمشى ملء ما يريد أمام النّهر، وتنشّق ملء رئتيه هواه، وتذكّر مشواراً جمعه مع حبيبته على أحد هذه المراكب ذات مساء مضيء.

كان الوقت صباحاً في حالي، لكنّ شعوراً معذّباً اجتاحني لحظتها: أتكون تلك المرّة الأخيرة التي أرى فيها النّيل؟! خطرت في بالي تلك اللحظات كلّ الوجوه التي أحبّها: مريم والأصدقاء والرّفاق واتّحاد الطّلبة في الدّقي ومناقشات كافتيريا كليّة الآداب والسّهرات المسائيّة.

في مجمع التّحرير، وبعد ساعات من الانتظار الطّويل في ممرّ أمام غرفة الضّابط المسؤول تحت حراسة شرطيّ لازمني طوال الوقت، أُفهمت بعد أنْ أُدخلت على هذا الضّابط أنّ الأمر يتّصل بقرار اتّخذ ولا مجال للمناقشة فيه بترحيلي من القاهرة وتسليمي إلى البحرين بناءً على طلب منها.

سألني الضّابط عمّا إذا كانت لديّ تذكرة عودة طيران إلى البحرين، فأجبت بلا، ثمّ سألني: وهل لديك فلوس لشراء هذه التّذكرة؟!

كنت أدرس في القاهرة شأن كثيرين بمنحة من حكومة أبوظبي. كان الأستاذ علي سيار قد ساعدني حينها في تدبّر تلك المنحة، برسالة منه إلى الأستاذ أحمد السويدي أوّل وزير خارجيّة لدولة الإمارات والمستشار الخاصّ للمغفور له الشّيخ زايد بن سلطان آل نهيان مؤسّس دولة الإمارات،

تمرّ مسرعة، راكضة، ويمكن لها هي نفسها أنْ تمتدّ، وتمتدّ لتصبح طويلة، مُضنية، حتّى لتكاد تحسّ أنّها تتسمّر في مكانها، جاعلةً من حواسك في حالة يقظة دائمة.

ما منْ أحد منّا إلا واختبر هذا التّفاوت في الإحساس بالوقت. ثمّة لحظات من السّعادة الغامرة التي تنتابنا أحياناً، ولفرط سعادتها فإنّها تجري، تركض، كأنّها على عجلة من أمرها، كأنّ أحداً ما في انتظارها في مكان آخر بعيد عليها أنْ تغذّ السّير للوصول إليه في الموعد المحدّد أو حتّى قبله، أو كأنّها خائفة منْ أمرٍ أو منْ أحد، كأنّ عيوناً تترصّدها، فتخشى السّعادة تلك العيون وتهرب مسرعة حتّى لا يراها المتطفّلون.

ما نكاد نظفر بهنيهات السّعادة هذه حتّى تولّي الأدبار على عجل. في هذه الحال تصبح السّاعة دقيقة والدّقيقة ثانية. الأوقات السّعيدة تمرّ خاطفة، لها وحدتها الزّمنيّة الخاصّة بها، للسّاعة فيها منطق دوران آخر غير ذاك الذي قننّته نظم قياس الزّمن.

في ساعات أخرى يمرّ الوقت بطيئاً، قاتلاً، ثقيلاً. السّاعة تمتدّ لتصبح ساعات، فتجتاحنا تلك الرّغبة المجنونة التي اجتاحت الرّجل الأمريكيّ فقام من توّه وأطلق النّار على السّاعة فدمّرها تدميراً كاملاً رغبة منه في القضاء على الوقت، لا على السّاعة.

عارض صحي ألزمني -في إحدى السّنوات- بالنوم في المستشفى، في جناح جماعيّ، يُذكّر في بعض أوجهه بالعنبر رقم (6) في قصّة أنطون تشيخوف الشّهيرة، عُلّقت على الحائط ساعة توقّفت عقاربها عن الدّوران. حين أفقت أوّل صباح لي في الجناح أبصرت السّاعة وهي تشير إلى السّادسة، فقدّرت أنّ الوقت مازال مبكّراً، وعدت إلى النّوم مجدّداً، لا أعرف كم مرّ

من الوقت حين أفقت ثانية، فنظرت من توّي إلى السّاعة المعلّقة على الحائط، لأجد عقاربها لم تبارح السّادسة. ساعتها أدركت أنّ هذه السّاعة قرّرت إيقاف الزّمن عند اللحظة التي توقّفت فيها عقاربها عن الدّوران.

لا أعرف ماذا كان المواطن الأمريكيّ الذي أراد أنْ يقتل الوقت بتدمير السّاعة، سيفعل مع هذه السّاعة المعلّقة على جدار عنبر المستشفى.

أستغرق أحياناً في تأمّلات حول الوقت، أرجّح أنّ مردّها هو الإحساس بأنّ الوقت يضيق على الالتزامات والمهامّ التي يرغب المرء في أدائها: أنْ ينخرط في الحياة فيكون حاضراً في قلب أحداثها، وأنْ يقرأ كتباً كثيرة، وأنْ يسامر أصدقاء يحبّهم، وأنْ يهاتف أحبّة، وأنْ يذهب للعمل صباح كلّ يوم في الموعد إياه، وأنْ يجد عدداً كافياً من السّاعات كي يخلد إلى نوم عميق يستمدّ منه طاقة ونشاطاً.

ولا يروق لي كثيراً العمل بالنّصيحة التّقليديّة البالية: لا تؤجّل عمل اليوم إلى الغد، فالسّاعات الأربع والعشرون في اليوم الواحد قليلة لكي نُنجز فيها كلّ ما نريد؛ لأنّها أشبه بدوّامة سريعة الدّوران لا تمنحنا الوقت الكافي لأداء كلّ ما نرغب فيه: أنْ نعمل وأنْ نستمتع بالكسل، كأنْ نرمي بأنفسنا على مقعد ونتسمّر أمام شاشة التلفزيون، نقلّب المحطّات بحثاً عن لا شيء، سوى البحث الرّتيب نفسه علّ قناة ما تشدّنا إليها بأمرٍ مسلٍّ أو أمرٍ مفيد.

شدّتني عبارة في احدى روايات ميلان كونديرا على لسان رجل سأله أحدهم، وهو يشكره على خدمة أجزاها له: أنت تقدّم الكثير من وقتك. فرّد الرّجل: «المرء لا يقدّم وقتاً أبداً. إنّه يقدّم اهتماماً، نصائح، معلومات، صداقة، ما أدراني ماذا أيضاً؟ الوقت ليس ملكاً لأحد. إنّه أداة قياس». هذا توصيف دقيق ومدهش للوقت، إنّه ليس أكثر من أداة قياس، وهو توصيف

المتوجّه إلى منطقة القلعة. كانت أعين النّساء والرّجال من ركّاب الباص متوجّهة نحوي، أشفقت على حالي من صرامة تلك النّظرات، شعرت بها كأنّها سياط تنهال على جسدي.

نزلنا عند أقرب محطّة إلى سجن القلعة ومشينا مئات الأمتار ويدي مقيّدة إلى يده، حتّى وصلنا إلى باب سجن التّراحيل، ضرب العسكريّ بيده وعاء حديديّاً مثبّتاً إلى الباب مُصدراً صوتاً قويّاً، حتّى فتح أحدهم كوّة صغيرة وسط الباب ثبّتت عليها أعمدة قضبان، وصرخ: «أيوه عايز إيه؟»

– ده اللي كلموك عليه من قسم التّرحيل الخارجيّ، أجاب العسكريّ.

فكّ الرّجل القيد عن معصمي، حرّرني منه أخيراً بعد أنْ ولجنا مدخل السّجن. كان سجن التّراحيل شديد التّواضع، ليس بين البوابة الخارجيّة ومكتب المسؤول سوى خطوات بسيطة، واسعة جدّاً، ولكنّها مليئة بالبشر.

***

حين تكون معارفك حول أمر ما قليلة فإنّ حجم مقارنتك يصبح هو الآخر قليلاً. هذه تجربتي الثّانية في التّوقيف بعد توقيف الصّيف السّابق في البحرين. هناك كنت في زنزانة صغيرة انفراديّة، تجاورها زنزانة أخرى.

المعتقلون السّياسيون في البحرين يعرفون تلك الزنزانة باسم زنزانة القسم الخاصّ، صدف أنّ في الزّنزانة المجاورة الأستاذ يوسف العجاجي أحد قادة جبهة التحرير الذي ما أنْ اطمأنّ إلى أنّ الشّرطيّ الذي أدخلني قد رحل، حتّى صاح من زنزانته يسألني: مَن الأخ؟! فأجبته أنا فلان وأنتَ من؟! فأجاب: أنا يوسف العجاجي.

يرغب صاحبه في أنْ يبدّد الفكرة المستقرّة في الأذهان عن إضاعة الوقت. ولكنّها وحدة قياس مخيفة؛ لأنّها تذكّرنا بأنّ مشاريعنا في الحياة هي على الدّوام أكثر وأوسع وأكبر من المساحة التي يتيحها لنا الوقت، إنّه لا يمتدّ لكي يمكّننا من أنْ ننجز كلّ ما نريد، ولو أنّه امتدّ لربّما اكتشفنا أنّ مشاريع أخرى جديدة قد نشأت تبعاً لذلك.

تحدثت مع صديق شاكياً له قلّة الوقت، وأذكر جوابه المخيف: كل الذين ماتوا، رحلوا قبل أنْ ينجزوا مشاريعهم. كان هذا الصّديق يستحثّ فكرة أخرى لديّ ولديه: لا تتعب نفسك بالمشاريع الكثيرة. ستمضي الحياة قبل أنْ تنجزها. لكنّني لا آخذ هذه النصيحة على مجمل الجد؛ لأنني أظنّ أنّ الحياة بدون مشروع تكفّ عن أنْ تكون حياة.

ما من حال يقترن فيها بطء مرور الوقت كحال الانتظار. الانتظار الذي يحبس الأنفاس، حين تكون على موعد مع لحظة مشتهاة ينشدّ إليها الفؤاد انشداد الوتر على القوس، أو حين نكون في حال ترقّب شغوف بقدوم عزيز غاب عنّا ولو لحين، أو حين نكون في انتظار رسالة ضلّت الطّريق إلينا أو تعثّرت في المشي وهي مهرعة نحونا، أو حين نكون في حال ترقّب مشتعل لهاتفٍ أرّقنا الضّنى لسماع الصّوت الذي سيحمله إلينا، فنهرع مسرعين نحوه.

أدهشتني -بعد نزع السّاعة من يدي في التّوقيف- الرّغبة المحمومة في التّعرّف على الوقت، في الإحساس به؛ لأنّه كان يمرّ بطيئا، مملًّا، معذّباً. العلاقة الوحيدة للإحساس بالوقت هي مواعيد الأكل إضافة إلى مواعيد الخروج للحمّام. كنت قد لاحظت أنّ جدران الزّنزانة مليئة بأسماء الذين عبروا فيها من سجناء وموقوفين سياسيّين سابقين، كلّ واحد كان يحفر اسمه

حفراً بآلةٍ ما على الجدار. مثلهم فعلت ورحت أسجّل في كلّ صباح تاريخ اليوم الجديد الذي أستقبله في الزّنزانة.

* * *

بالقياس إلى تجربة الزّنزانة الانفراديّة في توقيفي بالبحرين كانت تجربة التّوقيف في سجن التّراحيل بالقاهرة مختلفة. الزّنزانة هنا ملأى بالبشر، من بينهم أذكر صينياً هرب من نيران الحرب الأهليّة في بيروت التي كان يُدير فيها مقهى، عائدا إلى بلاده عن طريق القاهرة، أمرٌ ما في وثائقه الثّبوتيّة قاده لسوء حظّه إلى تلك الزّنزانة المكتظّة. فلسطينيّ من إحدى المنظّمات الفلسطينيّة لم أتعرّف على دوافع توقيفه، ولكنّني فهمت منه أنّه بصدد الهجرة إلى أوروبا، وكان قد اتّخذ قراراً بالطّلاق مع السّياسة: «لو أنّ كلّ فلسطينيّ ناضل عشر سنوات من عمره فذاك يكفي» - هكذا كان يقول مشيراً إلى أنّه انخرط في الكفاح الفلسطينيّ أكثر من هذه السنوات.

كانت هناك حالات أخرى تُعدّ بالعشرات. في مساء اليوم التّالي أحضروا عدداً كبيراً من عمّال الصّعيد الذين تمّ ضبطهم على الحدود مع ليبيا، كانوا يريدون الهجرة غير الشّرعية إلى هناك بحثاً على فرص عمل، وكان عليهم أن يبيتوا ليلة في تلك الزّنزانة المزدحمة، لينقلوا في اليوم التّالي إلى محافظاتهم. لم يكن ثمّة مساحة كافية لينام هؤلاء على الأرض، فكان أنْ تكدّسوا على بعضهم البعض وبجانب كلّ منهم كيس من القماش الأبيض فيه بعض أغراضه وملابسه.

في مساء الجمعة نادى أحد آمري السّجن باسمي، «تعال بره.. حدّ عايزك» أخذوني إلى جوار باب السّجن، ومن الفتحة إياها التي أطلّ علينا

تجربة السّجن الانفراديّ تتيح لك فرصة غنيّة للتّأمّل.

من ضمن الأشياء التي فكرت فيها ولم أستطع كتابتها في حينه هو العلاقة مع الوقت. كانوا قد نزعوا -من ضمن أشياء أخرى- ساعة يدي، لا أعرف ما هي حكمة السّجانين في نزع السّاعة، هل هي الرّغبة في قتل الإحساس بالوقت عند السّجين إمعاناً في عقابه؟

قرأت مرّة حكاية مواطنٍ أمريكي حُكم بالسّجن لمدة سنة كاملة؛ لأنّه قام بإطلاق النّار على ساعة حائط ممّا أدى إلى تدميرها تماماً بحجة أنّ صوت تكّاتها يزعجه. وكيل الادّعاء أشار مازحاً إلى أنّ المتّهم ربّما كان يحاول أنْ يقتل الوقت بالمعنى الحرفيّ للكلمة. لم تكن السّاعة إذن هي الهدف، وإنّما قتل الوقت!

وقتل الوقت فكرة طريفة منْ شأن هذا السّلوك الغريب للرّجل أنْ يفطننا إليها، والمقصود بقتل الوقت ليس هو ما نذهب إليه حين نتحدّث عن قضاء وقت الفراغ أو تزجيته في أمرٍ مسلٍّ للتّغلّب على تكّات السّاعة الرّتيبة، المملّة وهي تقطع ثواني هذا الوقت بصبرٍ غريب، حيث يُصبح لهذه التّكات في ساعات السّكون التّام الطّويلة صوت معذّب كذاك الذي يصدر عن حنفيّة ماء غير محكمة الإغلاق فتروح «تنقّط» الماء نقطة نقطة في إيقاع رتيب بليد يمكن أنْ يُسبّب للسّامع توتّراً عصبيّاً.

أما قتل الوقت الذي نعنيه، فهو ذاك المتمثّل في الرّغبة التي تجتاحنا في أنْ يتبدّد هذا الوقت أو يتلاشى لنقطع في وهلة أو رفّة عين تلك المسافة التي تفصلنا عن أمر أو عن شخص نحن بانتظاره. السّاعة كمعيار زمنيّ هي نفسها دائماً، منذ أنْ اكتشفها الإنسان وسيلة لقياس الوقت: ستّون دقيقة وفي كلّ دقيقة ستون ثانية. ويمكن لهذه الدّقائق السّتين وما فيها منْ ثوانٍ أنْ

العسكريّ أوّل مرّة عند ذهابنا للسّجن، أبصرت أصدقائي: علي حسين، علي عبدالصالح، عزيز حسن، حسين الموسوي، أحمد الذّكير وحسن المحروس. كانوا قد تقصّوا الأمر حتّى عرفوا مكان توقيفي بالضبط، وأفهمتهم أنّ الموضوع يتعلّق بطلب من البحرين بتسليمي، وأنّ الإجراء سيتمّ صباح السّبت، حيث يتمّ شراء تذكرة السّفر من خلال السّفارة.

أُجريتْ اتّصالات مع اتّحادات الطّلبة العربيّة واتّحاد المحامين العرب، والمحامين المصريّين، والاتّحاد الدّولي لنقابات العمّال العرب، ومع حزب التّجمّع الوطنيّ التّقدميّ برئاسة خالد مُحي الدين. المحامي الشهير المرحوم نبيل الهلالي المعروف بدفاعه عن قضايا الحريّات العامّة تبرّع بالدّفاع عنّي ضد فكرة ترحيلي إلى البحرين، ووفد من المنظّمات الطّلابيّة قابل وكيل وزارة الدّاخلية في صباح اليوم التّالي للغرض ذاته.

صباح السّبت جاءني عسكريّ آخر وقيّدني بالطّريقة إيّاها من معصمي، ومشينا على أرجلنا الطّريق نفسه حتّى أقرب موقف للمواصلات العامّة، ومن هناك توجّهنا إلى مبنى سفارة البحرين في المهندسين، حيث زُود العسكري بخطاب من السفارة بشراء تذكرة السفر، ومن هناك توجهنا إلى مكتب شركة طيران الخليج في ميدان طلعت حرب، ثمّ إلى مبنى مجمّع الجوازات في ميدان التّحرير مرّة أخرى بعد أنْ أصبحت تذكرة سفري إلى البحرين بحوزة العسكريّ، تمهيدا لنقلي إلى المطار لأُرحل في رحلة طيران الخليج إلى البحرين ظهر ذلك اليوم.

كنّا بصدد إكمال إجراءات السّفر في المطار، حين جاء اتّصال فوريّ من وزارة الدّاخليّة، بإحضاري إلى مبنى الوزارة في القاهرة.

في فناء المبنى وجدت بعض أصدقائي يتحلّقون حول أحمد نبيل الهلالي

الذي بادرني بالقول وهو يصافحني بحرارته ودماثته المعهودتين وبوجه بشوش: «مبروك.. حمد الله على السّلامة»، حينها فهمت أنّ الجهود قد أثمرت بإلغاء قرار ترحيلي، على أن أغادر القاهرة بعد أنْ أنهي آخر امتحان تبقّى لي من امتحانات نهاية العام من السّنة الدراسيّة.

من الفناء إلى مكتب مسؤول كبير في وزارة الدّاخليّة. لعلّه كان وكيل الوزارة نفسه الذي قابلته المنظمات الطلابية، أو مدير مكتب الوزير، كان معصمي مازال مشدوداً بالأغلال إلى معصم العسكريّ. أمر المسؤول ساعتها بفكّ القيد وخاطبني بلهجة وعظيّة ودودة: «مالك والسّياسة يا ابني. أهلك بعتوك للدّراسة موش عشان تشتغل سياسة. بوص لمستقبلك كويّس وسيبك من الكلام الهايف ده».

ثمّ أبلغني بما كنت قد أصبحت عارفاً له: «قرار ترحيلك للبحرين أُلغي، تخَلْصْ امتحاناتك وتسيب مصر على طول للبلد اللي أنت عاوز تروح له».

خرجنا من المبنى فرحين أنا والأصدقاء. للحريّة بعد الأسر مذاق جميل، ورغم أنّ الأمر لم يدم سوى أيام قليلة في التّوقيف، لكنّها كانت متعبة. كنت في غاية السّعادة أنّني ما زلت في القاهرة، وأنّني أرى النّيل مرّة أخرى على خلاف ما كنت قد ظننته يوم أخذني العسكريّ أولّ مرّة إلى مبنى مجمّع التّحرير وهو يقول لي: « النّهارده ها تترحّل من مصر».

لم أعد للقاهرة -منذ غادرتها- إلا بعد نحو عقدين من الزّمن، حين جئتها ضمن وفد ثقافيّ يمثّل دائرة الثّقافة والاعلام بالشّارقة، في احتفاليّة أقيمت أثناء معرض القاهرة الدّولي للكتاب سنة اختيار الشّارقة عاصمةً للثّقافة العربيّة. أوّل انطباع تكوّن لديّ في يومي الأوّل، في هذه الزّيارة هو ما يمكن أنْ أدعوه «كثافة الشّارع». الشّارع هنا بالمعنى الشّائع والمتداول الذي

نعني به النّاس. العدد الهائل من النّاس في الشّوارع يخلق شعوراً قويّا بأنّك وسط الزّحام، وسط وجوه تبدو أليفة رغم أنّك تصادفها للمرّة الأولى. ثمّة حياة وحركة وقدر هائل من التّفاصيل في سلوك النّاس، تجعلك للوهلة الأولى غير مكترث أو ممتعض من الازدحام وبطء حركة السّير، كأنّك تكتشف حالة أخرى من البطء والتّأمّل وألفة الأشياء والنّاس، ولوهلة تظنّ أنّ هذه هي الصّورة النّموذجيّة للحياة في اكتنازها بالتّفاصيل وفي سعي أهلها لأنْ يأخذوها غلابا.

بعد حين كان عليّ أنْ ألاحظ بأنّ مصدر هذا الانطباع هو المقارنة التي لا بدّ أنْ يقع فيها أيّ إنسان قادم من مدن الخليج إلى مدينة كبيرة وعريقة تضجّ بالحياة والحركة مثل القاهرة، حين يقارن بين حالين: حال مدن صغيرة حديثة تتميّز بأنّها في الإجمال نشأت متأخّرة، إذا ما تحدّثنا عن عمرانها وعن شوارعها ومبانيها، وبالتّالي فإنّها تداهم رائيها للمرّة الأولى بشعور الحداثة والجِدّة، كأنّ مباني هذه المدن قد أزيل عنها للتوّ ورق السّيلوفان الشّفاف الذي تغلف به الأشياء الجديدة عامّة، أما الشّعور الذي يداهمك وأنت تمشي في شوارع القاهرة فهو شعور بالعراقة، كأنّ الأشياء والمباني والشّوارع والتّماثيل تحكي نتفاً من ذكرياتها، كأنّها تقول كلّ ما عرفته وخبرته منْ أحداث وما مرّ عليها من بشر.

لم يسبق أنْ لاحظت أنّ المدينة الخليجيّة الحديثة تفتقد مفهوم الشّارع كما لاحظته في القاهرة. حقّا إنّ شوارعنا فسيحة مريحة ومنظّمة وسريعة، وتؤمّن انسيابيّة الحركة من خلال خطوطها المتعدّدة، ولكنّها شوارع للسّيارات. إنّ الرّصيف الموازي لهذه الشوارع لا يقارن في نبضه وحيويّته وامتلائه بالتّفاصيل بنظيره في المدن الكبرى.

***

البلد الوحيد الذي كان الذّهاب إليه متاحاً يومذاك -بعد الرّحيل من القاهرة- هو العراق. كانت الحرب الأهليّة اللبنانيّة في ذروتها في صيف 1976. كانت بغداد يومذاك تحفل بحياة سياسيّة وثقافيّة نشطة. فيها تصدر جريدة (طريق الشّعب) اليوميّة و(الفكر الجديد) الأسبوعيّة و(الثّقافة الجديدة) الشّهريّة، وكان الوسط الطّلابيّ البحرينيّ في الجامعات العراقيّة في بغداد والبصرة والموصل يعكس ما في الحركة الوطنيّة البحرينيّة من أطياف وتنوّعات. وسرعان ما تآلفت مع أصدقاء عديدين هناك، لكنّ ذلك لم يعوّض أبداً فقداني للقاهرة التي ظللت مشدوداً إليها.

ظلّت القاهرة، مدينةً وتاريخاً وناساً وحالاً من الحراك الثّقافي - السياسي، أكثر جاذبيّة لي. وحين كنت أشاهد فيلماً مصرياً في السّينما أو على التّلفزيون وأنا في بغداد كنت أحاول استعادة الأماكن والشّوارع والنّهر الذي يضفي على المدينة جلالاً وروعة، وكنت أحسّ بشيء من الأسى ولوعة الفقد.

ولأنّني أدرك أنّ العودة إلى القاهرة باتت متعذّرة لا بل ومستحيلة أخذاً بعين الاعتبار التّطوّرات السّياسيّة المتسارعة، فقد بدأت تلحّ عليّ فكرة العودة إلى البحرين. غالبني الشّعور بأنّ البحرين -بعد فقدان القاهرة- هي المكان الطبيعي لي والأشدّ جاذبيّة، كنت أميل إلى مغامرة الذّهاب إلى هناك، وصرت أفصح عن رغبتي هذه للمحيطين حولي، للدّرجة التي جعلتني أحدّد موعداً للعودة إليها قبل رأس السّنة الميلاديّة في الأوّل من يناير 1977.

***

لكنْ ما خلته مؤقّتاً أو عابراً بدا ليس كذلك في الحقيقة.

فيما بعد صرت أتساءل: ما المؤقّت، وما الدّائم؟. أيكون الدّائم هو

سلسلة «المؤقّتات» تتجمّع في نهاية المطاف أو تمتد لتشكّل الحياة؟ نتعاطى مع الأمور السّيّئة الباعثة على الأذى بوصفها غمّة مؤقّتة ستزول، ومع الأشياء الجميلة الباعثة على السّعادة ونحن مسكونون بالخوف عليها، لأنّها هي الأخرى ستزول.

ذات صباح وكنّا في الطّريق إلى سوق الخضار غير البعيد من سكن عبدالله الرّاشد حدثني بصراحة عمّا عدّه تسرّعاً في تفكيري بالعودة إلى البحرين، وقال لي إنّك كادر نشط ولديك طاقات كبيرة ولا نريد أنْ نخسرك، هل تعرف ما الذي ينتظرك هناك؟.. في البحرين سنخسرك، فيما نحن نحتاجك هنا، ورجاني أنْ أفكّر في الأمور بمسؤولية ونضج أكبر. شعرت -ساعتها- بصدق مشاعره وجديّة ما يفكّر به. كان قد رسم بينه وبين نفسه دورا ومستقبلا لي في العمل الحزبيّ في الخارج.

وفي ظلّ تربيّة صارمة تلقيناها بالتّقيّد بالتّوجيهات الحزبيّة وتنفيذها، فقد صرفت النّظر عن فكرة العودة للبحرين، وكان عليّ أنْ أهيّئ نفسي لمرحلة صعبة قادمة من حياتي، سأنتزع منها من بيئتي كشاب صغير، ولأتعوّد على العيش والعمل مع رفاق أكبر مني بكثير في السّن والتّجربة، وبوسعي القول اليوم إنّ ذلك بمقدار ما كان مفيداً في إغناء تجربتي الحياتيّة، ألّا أنّه تمّ أيضا على حساب تفاصيل إنسانيّة صغيرة ومهمّة في آنٍ في حياتي، وحرمني من ممارسة الحياة الاعتياديّة لشابّ في مثل عمري.

لا تقاس تضحيات الإنسان بالضّرورة باجتراحه لبطولات كبرى، وإنّما أيضا بحرمانه من مثل هذه التّفاصيل الإنسانيّة الصّغيرة، كأنْ يكون قريباً من والديه وأهله، كأن يعيش حياته الاعتياديّة شأن أيّ إنسان عاديّ، وأنْ يتدرّج في العمر، فتأخذ كلّ مرحلة من مراحل عمره ما هو حقّ لها من متعة وأسلوب حياة.

تبدو اللحظة التي يقف فيها المرء متأمّلاً للذي انقضى من عمره أشبه بالوقوف على شرفة تطلّ على وادٍ بعيد، ويستغرق المرء في تأمّل محطّات هذا العمر وأحداثه، وقد يحرّضه ذلك على التّأمّل في الماضي، والتّساؤل: أكان ينبغي أنْ تسير الأمور على النحو الذي سارت عليه؟ ألم يكن بالإمكان أن تكون أحسن؟

ولو أنّه تصرّف بشكل آخر إزاء حدثٍ ما أو فرصة ما، أما كانت الأمور ستأخذ مجرى مختلفاً عن ذاك الذي أخذته بالفعل؟ أسئلة تفضي إلى أسئلة هكذا ودونما نهاية. ولكنّ الأجدى أنْ يحسم الإنسان الأمر بالطّريقة التي عناها ليو تولستوي في روايته الشّهيرة (الحرب والسّلم) حين قال: «إنّ الأمور سارت على هذا النّحو لأنّها سارت هكذا». ولا تفسير آخر. سارت هكذا بالذّات لأنّ كلّ مستلزمات السّير على هذا النّحو كانت ميسّرة، ولم تكن ميسّرة مستلزمات السّير على نحو آخر.

ليس متعيّناً علينا أنْ نفسّر كلّ شيء ونشرح لماذا سارت الأمور في حياتنا بهذه الطّريقة بالذّات لا بطريقة أخرى سواها، ليس لأنّنا لا نريد ذلك، إنّما لأنّنا في حالات كثيرة لا نعرف الأسباب. إنّ تفسيرنا للذي حدث وكيف حدث ولماذا حدث بهذه الطّريقة بالذّات يظلّ في إطار الاحتمال؛ لأنّ الأمور إذْ تسير بطريقة معيّنة فإنّه ليس من سبب واحد وحيد لذلك.

من ذا الذي يستطيع أنْ يحدّد ما العامل الأكثر رجحاناً في تحديد خياراته الأساسيّة في الحياة؟ وإلى أيّ مدى يستطيع أنْ يجزم أنّ كلّ هذه الخيارات هي اختياراته لا اختيارات الظّروف التي فرضت منطقها، وكم هي المصائر التي صنعتنا أكثر ممّا صنعناها. يمكن لحدث عابر للغاية، أو مجرّد تفصيل صغير، أو مصادفة لم تكنْ في التّوقّع أو الحسبان أنْ تصنع لنا مصيراً كان حتّى قبل حدوثه ببرهة وجيزة في طيّ الغيب.

تتلخّص قصّة فيلم أجنبي عنوانه (اثنان في محطة القطار) في أنّ رجلاً كان في مهمّة في مدينة نائية، كان عليه أنْ يركب القطار العائد إلى العاصمة في الليل بعد أنْ أنهى المهمّة التي أُبتعث من أجلها، ولكنّ القطار فاته؛ لأنّه أتى متأخّراً عن موعد انطلاق القطار بثوانٍ قليلة. هذه الثّواني كانت كافية لقلب حياة الرّجل الذي وقع في حبّ نادلة مقهى المحطة الذي جلس فيه بانتظار موعد القطار القادم في يوم الغد؛ إذ إنّ هذه المرأة ستصبح فيما بعد قدره. حتّى الثّواني القليلة يمكن أنْ تقلب المصائر رأساً على عقب.

من هم الأكثر حظاً في هذه الحياة؟!

هل هم الذين تضعهم الحياة أمام خيار واحد وحيد، وبالتّالي فإنّهم لا يواجهون قلق وحيرة الاختيار، أم أولئك الذين يتعيّن عليهم أنْ يختاروا أمراً أو أحداً بين عدّة اختيارات؟!

إنّ الخيار الميسّر -أو المتاح- الوحيد يعفيهم من مأزق أنْ يختاروا ما الأنسب، هنا لا مدعاة للنّدم. لن يعود بوسعنا بعد حين أنْ نقول لو أنّنا كنّا تصرّفنا بشكل آخر، لو أنّنا تريّثنا بعض الشّيء واخترنا الخيار الثّاني لما كانت الأمور قد سارت على هذا النّحو.

تنشأ المشكلة حين نكون أمام خيارين أو أكثر. بدءاً من الحيرة التي تنتابنا حول ما الذي علينا اختياره: أيّهما الأنسب بين خيارين، أو ما الأنسب بين عدّة خيارات. أيكونون أكثر سعادة أولئك الذين ترمي إليهم الحياة بورقتي لعب أو أكثر عند كلّ منعطف وتضعهم أمام محكّ الاختيار، أم أنّهم أكثر شقاء؟ ما الذي يحدث حين يكتشفون بعد حين أنّ اختيارهم لم يكن صائباً، أو على الأقلّ لم يكن مثاليّاً؟ أيلوكون النّدم طويلاً واقعين تحت حيرة السّؤال: لو أنّنا تصرّفنا بشكل آخر، لو اخترنا الخيار الآخر، أما كانت الأمور

قد سارت على نحو أفضل؟ وقد يسكنهم الشّعور المعذّب لأنّهم اندفعوا نحو غواية الأيسر والأكثر إبهاراً، فذهبوا إلى مصير كذاك الذي تذهب إليه مختارة فراشة مخطوفة ببياض المصباح.

هناك ما هو أكثر فداحة، حين يتعيّن علينا المفاضلة بين خيارين، كلّ منهما يصادف هوى في نفوسنا. في هذه الحال علينا التّسليم بأنّه لكي نظفر بشيء رائع علينا أنْ نضحّي بشيء رائع آخر!

***

محطتي التّالية -بعد بغداد- ستكون بيروت. كانت قمّة رؤساء العرب في القاهرة التي انعقدت في صيف 1976 قد قرّرت مساعدة لبنان على إيقاف حربه الأهليّة، وتشكّلت قوّات الرّدع العربيّة لفكّ الاشتباك بين المتقاتلين، وشكّل الجيش السّوري الموجود في لبنان الجزء الحاسم والأكبر في هذه القوّات. الهدنة النّاشئة بسبب ذلك جعلت الإقامة في لبنان ممكنة، فكان أنْ سافرت إلى هناك.

لن أنسى أوّل صباح أفقت فيه من النّوم في بيروت، في الشّقة التي تقع في منطقة الفاكهاني بالطّريق الجديدة ليس بعيداً عن مبنى جامعة بيروت العربيّة ولا عن مخيميْ صبرا وشاتيلا الشّهيرين. كان أحدهم قد فتح الرّاديو وكانت فيروز تغنّي: «حليانه الدّنيا حليانه بلبنان الأخضر». شعور غريب انتابني بالقرب الرّوحي من هذه المدينة، سيتطوّر فيما بعد إلى محبّة عميقة، وتعوّد كبيرعليها.

لم تكن تلك المرّة الأولى التي أزور فيها بيروت. لقد جئتها قبل ذلك الحين بضع مرّات، لكنّ أكثرها سطوعاً وحضوراً في ذاكرتي هي المرّة الأولى.

لقد حدث ذلك في عام 1973 قبل التحاقي بالجامعة. تلك هي المرة الأولى التي أركب فيها الطّائرة، بلْ كانت أوّل مرة أسافر فيها خارج البحرين. وكانت بيروت -ولبنان عامّة- في تلك الفترة حلم المسافرين. كانت سفرة لا تُنسى؛ لأنّها اقترنت بقصّة الحبّ الأوّل في الحياة.

في الشّارع المتقاطع بين نزلة سينما البيكاديللي وشارع الحمراء في بيروت الذي يفضي بدوره إلى الجامعة الأمريكيّة في رأس بيروت يقع مقهى (المودكا) الأنيق الحميم. ولزمنٍ طويل ظللت وكلما سمعت أغنية فيروز: (في قهوة ع المفرق) تذكّرت هذا المقهى. لقد كان بالضّبط «على المفرق»: مفترق الطّرق، ومفترق العمر.

ما أطيب ذكرى تلك السّويعات المسائيّة المعطّرة بالنّدى والياسمين! حين تطوف فتيات الغجر بقلائد الزّهور بحثاً عن عشّاقٍ يهدونها إلى من يهوون، وفيما تشيع في المكان رائحة القهوة المركّزة يتسلّل في الزّوايا صوت فيروز بكلمات سعيد عقل أو الأخوين رحباني القادمة من جبل صنّين أو من الضيع اللبنانيّة المستريحة على كتف الجبل فيغمر الأفئدة بالألفة والدّعة.

وبالجوار شارع الحمرا حيث الأضواء ودور السّينما والمقاهي والمحلّات وكلّ كتب الدّنيا المصفوفة على الأرصفة.

بيروت التي رأيتها في مطالع عام 1977 كانت مختلفة كليّاً. لقد دمّرتها الحرب الأهليّة وهشّمت مبانيها وقطعت أوصالها بالحواجز العسكريّة، وامتلأت ساحاتها وشوارعها وأزقّتها بالمسلّحين من الجنسيّات والاتّجاهات المختلفة. ولكنّ بيروت رغم ذلك ظلّت تنبض بالحياة.

كانت الصّحف تصدر في مواعيدها وتزخر المدينة بالمطبوعات. كان زياد الرّحباني يقدّم مسرحه السّاخر، الذي قدّر لي أنْ أشاهد عروضه وعروض

يعقوب شدراوي وروجيه عسّاف ونضال الأشقر، وحفلات ماجدة الرّومي وفرقة فهد العبدالله، وكانت حفلات مارسيل خليفة وفرقة الميادين وخالد الهبر وفرقته أنشطة متكرّرة، وكان الجوّ الطّلابي اللبنانيّ والفلسطينيّ نشطاً.

ورغم الوضع الأمنيّ المتفجّر والاشتباكات المسلّحة المتكرّرة إلّا أنّني ألفت هذه المدينة كثيراً ووجدت نفسي فيها، وكانت دور السّينما تبثّ الأفلام السّينمائيّة الجديدة بعد فترة وجيزة جدّاً من إنتاجها وتوزيعها، وتتابعها الصّحافة الفنيّة والثّقافيّة بالتّعليق والشّرح على يد نقّاد معروفين مثل إبراهيم العريس وسواه، وكنت أواظب على حضور العروض السّينمائيّة الجديدة بشغف، هذا فضلاً عن النّدوات السّياسيّة والفكريّة التي كان الكثير منها يستهويني.

ما من شاعر عربي مجّد بيروت كما فعل محمود درويش: «تفاحة في البحر، امرأة الدّم المعجون بالأقواس، شطرنج الكلام، بقيّة الرّوح، استغاثات النّدى، زنبقة الحطام، سطوح للكواكب والخيام، قصيدة الحجر، وردة مسموعة، صوت فاصل بين الضّحيّة والحسام، حلم سنحمله ونحلمه متى شئنا، نعلّقه على أعناقنا، ولد أطاح بكلّ ألواح الوصايا والمرايا».

وحين كان المقاتلون الفلسطينيون يغادرون بيروت المحاصرة ويركبون البحر الأبيض المتوسّط في رحلة تيه جديدة إلى منافٍ بعيدة هتف محمود درويش كعاشق ممزّق إزاء امرأة يحبها وتنأى عنه: «أحبّك، لا أحبّك! كم أحبّك!»، ومضى في ملحمته: «مديح الظّل العالي» محروقاً بالنّشيد: «بيروت لا تعطي لتأخذ، أنت بيروت التي تعطي لتعطي».

حتّى نزار قبّاني الذي استغرقته بيروت حتّى النّخاع لم يصل بها حدّ النّشيد الدّراميّ الذي بلغه محمود درويش؛ لأنّها بالنّسبة لهذا الأخير كانت

تقاطع زمنين، زمن للبنان وآخر لفلسطين، حين كان درويش يوغل في براري ملحمة شعبه كان يغوص في نشيد بيروت.

كانت بيروت في ذلك الزّمن مقرّاً للثّورة الفلسطينيّة، في ما عُرف بـ«جمهوريّة الفاكهاني»، نسبة إلى الشّارع الشّهير في منطقة الطّريق الجديدة، وهو كما يعلم الذين عاشوا فيه أو عرفوه، شارع قصير لا يتجاوز طوله بضع مئات من الأمتار تنتشر على جانبيه مكاتب التّنظيمات الفلسطينيّة، وما أكثر ما قام الطّيران الإسرائيليّ بقصفه ودكّ بعض عماراته مع الأرض بمن فيها من مقاتلين وكوادر وسكان مدنيّين.

وذات قصف أوشكت أن أفقد حياتي أو على الأقل أصاب، ففي مشوار صباحي ذات صيف لقضاء بعض المهام، بينها المرور على مطبعة تقع في الطابق الأول من عمارة سكنية في «الفاكهاني» بالذات، وفي بعض طوابق هذه العمارة توجد مكاتب كثيرة للتنظيمات الفلسطينية، وكذلك الذهاب إلى مبنى البريد في شارع كورنيش المزرعة غير البعيد عن الفاكهاني.

المصادفة وحدها هي التي جعلتني أقرر بأن أبدأ بالذهاب للبريد، على أن أعرج على المطبعة وأنا عائد في طريقي لمكان سكني غير البعيد عنها، فما كدت أقطع الشارع باتجاه الملعب البلدي في منطقة «الطريق الجديدة» باتجاه البريد، وإذا بي أسمع هدير الطيران الحربي الإسرائيلي على علو منخفض، وما هي إلا هنيهات حتى انقضت القاذفات على العمارة التي تقع فيها المطبعة، وتلقي بصواريخها عليها، في طلعات متتالية، لتسوي العمارة بمن فيها مع الأرض، حيث استشهد كل من كان في المطبعة التي كان من الممكن أن أكون فيها، لولا أني اخترت أن أذهب البريد أولاً.

باحثة أجنبية وضعت بيروت في مرتبة متقدّمة، لعلّها المرتبة الثّانية، بين

أكثر المدن حيويّة في العالم، وهي تحدثت عن مبنى متهاوٍ من آثار القصف وداخله يقام معرض تشكيليّ. وتحدّثت -أيضاً- عن هذا الإصرار العجيب لدى النّاس على الحياة والمقاومة والتّآلف مع خراب الحرب، لا برغبة قبوله وإنّما برغبة نفيه وتجاوزه، وليس في هذا مفاجأة للذين يعرفون بيروت، التي كانت والنّهار قرينين.

كان نهارها نهاراً وليلها نهاراً أيضاً. فالشمس تشرق من بيروت وتوزّع شعاعها على العالم العربيّ من أقصاه إلى أقصاه، ما كانت آخر الأفكار تتداول في مكان ما من العالم إلا وتجد صداها كتباً مترجمة بعد حين في بيروت. وإلى بيروت كان رجال الفكر والثّقافة والسّياسة العرب يأتون بحثاً عن متنفّس لهم، عن كوى للحريّة والتّعبير والقول، لذا ما من قامة عربيّة معاصرة شامخة إلا ومرّت عبر بيروت أو أقامت فيها. ولعلّ العديد من هؤلاء لو سئلوا عن المكان الذي طبعوا فيه أولّ كتبهم لقالوا: بيروت.

بيروت والنّور قرينان. لهذا حين كان جنرالات إسرائيل يهدّدون في كلّ مرّة بحرق لبنان، يبدأون بقطع النّور عنها. لكنّ بيروت تدرّبت على مقاومة الظّلام هي التي اجترحت منذ مطالع القرن العشرين معجزة توليد النّور من قلب العتمة.

في منتصف المسافة بين (سوق الغرب) و(عاليه) -المصيف اللبنانيّ الجبليّ الشّهير الذي يقصده أهل الخليج، تقع مجموعة من البيوت الحجريّة المغطاة أسقفها بالقرميد الأحمر، والمحاطة بغابات الأشجار الدّاكنة الخضرة. أحد هذه البيوت، وهو عبارة عن طابق أوّل في دارة أنيقة مكوّنة من طابقين، تؤدّي إليها درجات سلّم حجريّ كان مُستأجرا لعبد الهادي خلف.

وما أكثر ما دعانا لقضاء نهاية الأسبوع في هذا البيت! كان للدّارة شرفة

تطلّ على منحدر متدرّج من أشجار الصّنوبر والزّيتون التي تغطّي قرى صغيرة جميلة، ومن خلفها تتراءى بيروت بكلّ سحرها. في الأمسيات كان النّظر من الشّرفة إلى أضواء المدينة وهي تتلألأ متعة حقيقيّة، أشبه بالنّظر من نافذة طائرة مُحلّقة على علو منخفض لمدينة حديثة. ورغم أنّنا لم نكن نخلد إلى النّوم مبكّرين، فإنّ المناخ النّديّ الجميل والنّسمات العليلة التي تتسلّل في الصّباح توقظنا باكراً بشعور من النّشاط والحيويّة.

وأمام البيت مباشرة ساحة صغيرة أنيقة، حيث كرمة تبسط أذرعها على سقف يظلّل المدخل، وتتدلّى منها العناقيد وافرة، جنيّة، محملّة بالعنب الأحمر الشّهيّ. وكانت سعادة كبيرة أنْ نقطف ذلك العنب الطّازج النّاضج. وكلّما رأيت الكرمة خطرت على بالي القصيدة الشّهيرة لجبران خليل جبران التي تغنّيها فيروز: أعطني النّاي وغنّ، والتي يُشبّه فيها عناقيد العنب بثريّات الذّهب، وكنت أقول إنّه لم يكن بإمكان جبران إلّا أنْ يكون لبنانيّا كي يكتب هذه القصيدة، وإنّ أمام الدّارة التي سكنها في بلدته «بشرّي» توجد بالتّأكيد كرمة عنب تدلّت منها عناقيد كتلك التي كانت تتدلّى من الكرمة في هذه الدّارة.

مشهد عناقيد العنب ظلّ عالقاً في الذّاكرة، حتّى جاء صيف 1982، واندفعت دبّابات شارون إلى النّبطيّة وصور فبيروت، وألقت الطّائرات حمم الموت والجحيم على الأبرياء والأطفال والنّاس العزّل انتقاماً من المدينة - الرّمز ومن أهلها.

بالنّسبة لإنسان جاهل بشؤون العسكرة وأنواع الطّائرات والدّبابات والقنابل مثلي، كان أمراً محيّراً أنّ بعض القنابل التي مزّقت جثث النّساء والأطفال والأبرياء إربا اسمها القنابل العنقوديّة. وهذه القنابل كما كتب

«إلى أين يذهب الشّهداء؟»، هكذا تساءل مرّة الدّكتور فيصل درّاج في مقدمة أحد كتبه، كأنّه كان يردّ على عبارة للرّوائي الجزّائري الطّاهر وطّار تقول: «الشّهداء يعودون هذا الأسبوع». لكنّ الشّهداء لم يعودوا. إنّ نداءهم ظلّ يحوم في الفضاء يتيماً، لولا بقايا صوت، لولا وخزات ضمير هنا وهناك.

في ذلك الزمن البيروتيّ الذي عشته كانت صور الشّهداء تعلّق على الجدران، يذهب الشّهيد وتبقى صورته على الجدار. ما أكثر الصّباحات البيروتيّة -والفلسطينيّة بالطّبع- التي كان النّاس يفيقون فيها على صورة شهيد جديد أو شهداء جدد: وجوه أليفة، جميلة، عيون مشعّة وذكيّة، وملامح شبّان مقبلين على الحياة. كان الشّهداء كالأصدقاء، كالأقارب، حتّى لو لم نكن نعرفهم. ثمّ يأتي مطر، مطر غزير فيغسل الصّور حتّى «البلل الأخير» بتعبير فيصل درّاج، وحين يذهب المطر وتعود الشّمس السّاطعة لا يبقى من صور الشّهداء سوى بقايا، بقايا البقايا، حتّى تأتي صورة شهيد جديد، أو صور شهداء جدد، هكذا في متوالية لم يكن يبدو أنّ ثمّة نهاية لها.

ومازلت أذكر صباحاً من تلك الصّباحات حين خرجت من العمارة التي اسكن فيها لتواجهني على الحيطان صور لصبيّة جميلة في مقتبل العمر أعرف شكلها جيّداً لأنّ عمارة واحدة فقط كانت تفصل بين البيت الذي تقيم فيه مع أهلها، وعمارتنا، وكثيراً ما رمقت هذه الصّبيّة وهي خارجة أو داخلة من ذلك البيت، دون أن يخطر في ذهني أنّها تخبّئ خلف صمتها قصّة سيرويها التّاريخ فيما بعد.

لم أعرف اسمها إلا حين قرأته مطبوعاً على الملصقات التي غطّت الحيطان في الشّارع، بما فيها حيطان العمارة التي كانت تخرج منها. ذهلت ممّا

في الصحف حينها عبارة عن مجموعة كبيرة من القنابل الصّغيرة داخل قنبلة كبيرة وأنّها تنفجّر تباعاً، بالتّوالي، وليس مرّة واحدة لذا تأتي الخسائر التي تُوقعها أكثر، بما في ذلك في صفوف المنقذين من رجال الإسعاف وسواهم الذين يهبّون لنجدة وإخلاء الجرحى وجثث الشّهداء، فيفاجؤون بانفجارات أخرى.

انزاحت صورة عناقيد العنب في الدّارة وفي قصيدة جبران خليل جبران، لتحلّ محلّها صورة هذا النّوع المرعب من القنابل الذي تباهى رونالد ريجان حينها بفعاليّته بعد أنْ جُرّب لأوّل مرة في اللحم اللبنانيّ والفلسطينيّ..!

المشهد «العنقوديّ» هذا توالى فصولاً، حين شنّ شمعون بيريز -بعد سنوات- حملة «عناقيد الغضب» ضدّ جنوب لبنان التي ارتكبت فيها مجزرة «قانا»، حيث حصدت القاذفات الإسرائيليّة أكثر من مائة قتيل من المدنيين الأبرياء: رجال ونساء وأطفال لا حول لهم ولا قوة، هرعوا إلى مقرّ الوحدة الفيجية العاملة في إطار قوّات الأمم المتّحدة. ظنّ هؤلاء -ولفرط براءتهم- أنّ عَلَم المنظّمة الدّوليّة الذي يرفرف فوق المبنى المذكور يوفّر لهم حماية، لكنْ لم يمض وقت طويل بين هرعهم إلى المبنى وبين قاذفات الموت التي لم توفّر حيّا.

بعد ذاك بثلاثة أعوام نظّم فنانون من مصر وسوريا ولبنان تظاهرة بعنوان «في مثل هذا المساء كانوا أحياء»، أشعل المشاركون الشّموع على أضرحة الشّهداء الذين كانوا قبل ومضة من القصف الإسرائيليّ أحياء، ثمّ ومضة وينهدّ عليهم المبنى بكامله ليصبحوا شهداء. يومها قلنا تعب اللبنانيون والفلسطينيون من تقديم الشّهداء: شهداء ثمّ شهداء ثمّ شهداء وأحيانا بالعشرات مرّة واحدة، لا بل والمئات.

شاهدت، فقد كنت سمعت -بالأمس- في الأخبار عن عمليّة في الأراضي الفلسطينيّة قادتها شابّة اسمها دلال المغربي على رأس مجموعة من الفدائيّين تسلّلوا من ساحل صور عبر زوارق مطّاطية صغيرة أخذتهم إلى الشّاطئ الفلسطينيّ. لكنْ ما لم يدر في خلدي أنْ تكون هذه الشّهيدة هي الصّبيّة ذاتها ابنة التّسعة عشر ربيعاً التي تسكن في البناية المجاورة.

حين غادر من أتوا «قانا» يحيون ذكرى الشّهداء قبل أعوام، وقفت سيّدة طاعنة في السّن، من أهالي البلدة في إحدى زوايا المقبرة وحيدة. رفضت أنْ تذكر اسمها للصّحافيّين، اكتفت بالقول إنّها «أم سعيد»، وقالت بأسى: «هذا ضجيج المناسبات. أما في باقي الأيام فيسود المقبرة سكون مثل سكون كلّ المقابر»

هل تراها فعلاً على حقّ؟ هل ينام الشّهداء في وحشة المقبرة وصمتها القاتل وحيدين؟ أم تراهم يعودون إلينا كالفكرة الفاتنة؟

مرّة على مشارف مدينة أوروبيّة بعيدة في يوم ثلجيّ عاصف، درجة الحرارة كانت دون العشرين تحت الصّفر، ولم تحمنا الملابس الثّقيلة ولا قفّازات الأيدي ولا الأحذية الطّويلة من ذلك الصّقيع الذي كان يخترق الملابس والعظام وينسلّ إلى الجسم على شكل لسعات من برد. أُخذنا إلى ساحة كبيرة وقيل لنا: ها هنا كانت قرية حرقها الألمان وأبادوا كلّ أهاليها عن بكرة أبيهم. كانت السّاحة واسعة ومهيبة. وبدءاً كانت كلمات نقشت على لوحة ذهبيّة: «هنا يبدأ الموت. الرّجاء الخشوع».

عدا جلال المشهد أمامك فإنّ هذه العبارة كانت كافية لأنْ ترمي بك في طقسٍ من الرّهبة ومن الحزن. خطوات وابتدأت أصوات جرس يقرع في

رتابة. مشينا على الأقدام بضع مئات من الأمتار قبل أن نقف أمام نصب ضخم: ذكرى ضحايا النازيّة، وقبل أن نعود أدراجنا حيث الباصات في انتظارنا قادتنا الدّليل إلى غرفة مجاورة، وهناك رأينا بشاعة ما خلّفته المجزرة: صوراً لعظام وجماجم بشريّة، وصوراً لأسرى ذوت أجسادهم من الجوع والتّعذيب قبل أن يساقوا إلى المحارق الجماعيّة. الشّعور الذي داهمنا في تلك اللحظة من الصّعب نقله إلى الورق. شعر الجسم يقف من القشعريرة، ورغم الصّقيع يتصبّب العرق من الجسم، وشيء كوخز الإبر يدبّ في أوصال الجسد.

قالت الدّليل ونحن نعود أدراجنا: «كلّ هذا كي نتذكّر.. كي لا ننسى».

ظنّنا أنّ ذلك كان يحدث في الماضي فقط لولا أننا قادمون من هذه البقعة الملتهبة من الكوكب، ومعنا فلسطينيون ولبنانيون رأوا بأمّ العين -لا في الصّور- مشاهد لا تقلّ بشاعة عن هذه. وفي ذاكرتهم قرى فلسطينية أبيد أهلها في ليالٍ سوداء على أيدي الصّهاينة الذين ورثوا أسوأ ما في النّازيّة من جينات حتّى لو تقمّصوا دور الضّحيّة. وما كادت بيروت تودّع المقاتلين الفلسطينيّين حتّى انسل القتلة المتلفّعين بعباءة الجنرال شارون إلى أزقّة صبرا وشاتيلا ليكرّروا المشهد الدّموي نفسه. يومها هتف محمود درويش: صبرا هويّة عصرنا حتّى الأبد!، كان على الشّاعر أن ينتظر سنوات قليلة حتّى يدع قانا تتآخى مع صبرا في تشكيل صورة هذه الهويّة.

***

عوّضت بيروت عن فقداني للقاهرة، وجعلت حياتي من جديد ثريّة وحيويّة ومتحرّكة. ولأنّه كان عليّ أن أوفّق بين نشاطي السّياسيّ وبين

مواصلة دراستي الجامعيّة التي كانت قد انقطعت بمغادرتي القاهرة، فإنّني أحضرت بمساعدة الأصدقاء في القاهرة الأوراق التي تفيد إنهائي السّنة الأولى في كليّة الحقوق، وسجّلت في السّنة الثّانية بجامعة بيروت العربيّة.

وكما كان الحال في القاهرة فإنّ الدّراسة لم تحظ منّي بالاهتمام الذي تستحقه، خاصّة وأني شعرت بشيء من الفتور تجاه كليّة الحقوق بالذّات وموادّها الجافّة التي لا تلائم ميولي، ولكنّني رغم ذلك صمّمت على إنهاء دراستي الجامعيّة في الكليّة ذاتها، فكنت أجهد نفسي أواخر العام الدّراسيّ في التّحضير للموادّ التي عليّ أن أمتحن بها، وهكذا أمكنني بعد أربع سنوات أن أنال شهادة الليسانس في الحقوق من الجامعة المذكورة.

كنت خلال إقامتي في بيروت كثير السّفر لحضور مؤتمرات عربيّة ودوليّة للشّباب، وكثير من هذه المؤتمرات كان يعقد في دول أوروبيّة -شرقيّة أو غربيّة- وفي صيف 1982 كنت قد سافرت إلى براغ عاصمة جمهورية تشيكوسلوفاكيا -يومذاك- لحضور الجمعيّة العموميّة لاتّحاد الشّباب الدّيمقراطيّ العالميّ. ونحن في براغ علمنا بنبأ دخول الجيش الإسرائيليّ الأراضي اللبنانيّة، ورحنا نتابع أنباء تقدّم الدبّابات الإسرائيليّة من النّبطيّة إلى صور وصيدا فالطّريق السّاحليّ المؤدّي إلى بيروت من محاور مختلفة، إلى أن أطبقت القوّات الإسرائيليّة على بيروت ذاتها.

حوصرت بيروت لعدّة شهور، وأخرجت المقاومة الفلسطينيّة من هناك، حيث عبر المقاتلون الفلسطينيون البحر إلى منافٍ بعيدة جديدة. وكان أنْ وجدت نفسي واحداً من الذين فقدوا بيروت كمقرّ لهم وكفضاء روحيّ ونفسيّ عزيز بات عصيّاً، كانت بيروت هي الفقد الثّاني الغالي بعد القاهرة، وكان عليّ أن أُوطّن نفسي على الإقامة في عاصمة عربيّة أخرى هي دمشق.

مكثت في دمشق خمس سنوات، تفرغت فيها بصورة تامة للعمل الحزبي، حيث كان للحركة الوطنية البحرينية ممثلة في جبهة التحرير الوطني والجبهة الشعبية مكتبا تمثيل رسمي متجاوران، ويقعان في مبنى مقابل مباشرة لفندق أمية في الصالحية، يضم مكاتب لعدد آخر من حركات التحرر الوطني العربية.

دمشق مدينة جميلة، عريقة، معروفة بحيويتها الثقافية والفكرية، وفيها تقام سنوياً مهرجانات محلية وعربية للمسرح والسينما، فضلاً عن الندوات والمؤتمرات الأدبية، وتنتشر فيها المكتبات التي تعرض أحدث الاصدارات الأدبية والفكرية سواء تلك التي تصدر في سوريا نفسها أو تضخها المطابع في بيروت، وأذكر جيداً تلك المشاوير التي كنت أقطعها نحو مكتبات دمشق العامرة بالمعرفة والنور، ولا أنسى أبداً ذلك المربع من قلب المدينة الذي يعج بالمكتبات في منطقة الصالحية، ثمة خطوات قليلة تفصل بين مكتبة وأخرى، أشهرها مكتبة ميسلون غير البعيدة عن فندق الشام الذي أنشىء فيما بعد، واللصيقة بفندق أمية. هناك تجد ترجمات الأدب الكلاسيكي الإنساني من الفرنسية والروسية والإنجليزية، وآخر الروايات والمجموعات القصصية ودواوين الشعر.

وإن أنسى فلا أنسى المكتبة الملحقة بمبنى وزارة الثقافة في «أبو رمانة»، الحي الارستقراطي الذي يضم، فيما يضم، السفارات الأجنبية والفلل الفاخرة والمقاهي الأنيقة والحدائق الغناء. في تلك المكتبة، التي لم تكن مساحتها كبيرة بالمناسبة، تجد بأزهد الأسعار إصدارات وزارة الثقافة الموزعة بين الترجمة والتأليف. وبين محتويات مكتبتي الشخصية نماذج من تلك الإصدارات الثمينة التي لم يعد بالإمكان أن تجد مثيلاتها اليوم.

ولا نستطيع أيضاً أن نتصور دمشق من دون مقاهيها: مقهى «القنديل» الشهير، ومقهى «الهافانا» وسواهما من المقاهي التي كانت تضج بالحوارات والنقاشات الصاخبة للمثقفين والمبدعين الشباب، يوم كان والت ويتمان ورامبو ونيرودا محاور النقاش والجدل، ويوم كانت دمشق وغيرها من العواصم العربية مصاهر للحداثة الفكرية والاجتماعية.

لكن بالقياس لمناخ الحرية الذي ألفته في بيروت، تبدو قبضة الأجهزة الأمنية في دمشق ثقيلة ومنغصة، وكان ذلك يتجلى، أكثر ما يتجلى بالنسبة لنا في إجراءات الدخول إلى المطار، فبحكم سفرنا المتكرر لحضور فعاليات خارج سورية، نمر في كل مرة، عند العودة، بتدقيق تجعل الواحد منا ينفر من فكرة السفر ذاتها.

***

سيكون أمراً مُضلّلا إن بدا أنّ هذا الفقد المتتالي للمدن فقد شخصيّ، إنّه في العمق فقد جماعيّ لجيل بكامله عاش صعود أحلامه وانكساراتها أيضاً.

في كتابه «سيرة مدينة» يصرّ الرّاحل عبدالرحمن منيف على أنّ المدن ليست هي المعالم، مهما بلغت البراعة في استعادة تفاصيلها وليست المياه والأرض والأشجار، وهذه كلّها أو بعضها لا تزال قائمة أو يمكن تخيّلها، فالمدن لا تقتصر على البشر، رغم أنّ هؤلاء هم الذين يعطونها القوام والنّكهة. وعند الحديث عن الماضي يلاحظ الكاتب أنّه لا يمكن استعادة الفترة الزّمنيّة الماضية باستعراض ما وقع خلالها من أحداث، إذ رغم فائدة ذلك لأنّه يضعنا في الطّريق الصّحيح، إلّا أنّه لا يوصلنا إلى ما نريد.

«المدينة -أيّة مدينة- هي كلّ هذه الأشياء معاً وغيرها، وقد تداخلت

وترابطت وتفاعلت بحيث أصبحت مختلفة عن العناصر التي كوّنتها مع استمرار صلتها بها واختلافها عنها» - هذا ما يخلص إليه عبدالرحمن منيف في إيجازه لفكرة أنّ المدينة هي الحياة بتعدّدها وتنوّعها، «فهي الأمكنة والبشر ورائحة المطر وهي التّراب أيضاً، هي الزّمن ذاته لكنْ في حالة حركة».

وخساراتنا للمدن ليست سوى تجلٍّ لخسارات أشدّ فداحة.

مرّة على أعلى تلّة مواجهة لقرية مجدل شمس في هضبة الجولان السّورية كنّا رهطاً من شبّان عرب أتوا من بلدان عربيّة مختلفة للمشاركة في مؤتمر للطّلبة السّوريّين، وصادف أنّ عيد الجلاء، اليوم الوطنيّ الذي تحتفل فيه سوريا بجلاء جنود الانتداب الفرنسيّ عن أراضيها، مرّ في تلك الفترة.

منظمو المؤتمر أخذونا بالباصات إلى تلك التّلّة العالية، أمامها وادٍ سحيق، وهناك على بعد مئات الأمتار فحسب بدت القرية المحتلّة.

لم نكن وحدنا. كان ثمّة مواطنون سوريون كُثر، وعلى مرمى البصر تراءى لنا أهالي مجدل شمس وقد تجمّعوا في ما يشبه المسيرة، وفوق هاماتهم ارتفعت الأعلام السّوريّة. هنا أهل سوريا، وهناك وراء الوادي السّحيق، على بعد مئات الأمتار فحسب، على التّلّة المقابلة أهل سوريا أيضاً: الأحبّة وقد انشطروا إلى شطرين. وعبر مكبّرات الصّوت راح الأحبّة المشطورون إلى شطرين يتبادلون التّحية: هل تسمعوننا؟ نعم نسمعكم. يلي ذلك كلمات تحيّة وتعضيد فيما الآليّات والدّبابات الإسرائيليّة تبدو واضحة والجنود فوقها وحواليها.

بعد ذاك، لا أذكر متى على وجه اليقين، سأزور ضمن مجموعة أصدقاء مدينة القنيطرة المحرّرة، آخر بقعة تحاذي هضبة الجولان. كان الجيش الإسرائيليّ قد دمّر البلدة عن آخرها وهو يخلّفها وراءه ركاماً من المباني فوق

بعضه البعض كذلك الرّكام الذي يخلّفه زلزال أرضي عاتٍ.

هنا كانت مدينة عامرة. حين شاهدت فيلم محمّد ملص (أحلام مدينة) التي تسجّل ذاكرة طفل يخلّف القنيطرة خلفه بعد أنْ احتلّها الجنود الإسرائيليون في حرب 1967 تيقّنت من فداحة ما حدث، فداحة أنْ تتحوّل مدينة إلى ركام بفعل فاعل محتلّ وغادر.

بعد جولة بين ركام المدينة المدمّرة نخطو باتّجاه الحدود مع الجولان، حدود سورية تجاه حدود سوريّة أخرى، لكنّها محتلّة: موقع للجيش السّوريّ، ثمّ على بعد مئات قليلة من الأمتار موقع للأمم المتّحدة، ثم على بعد أمتار قليلة أخرى موقع الجيش الإسرائيلي، وعلى المقربة تلوح هضبة الجولان بكلّ جلالها وبإطلالتها الاستراتيجيّة على دمشق. بقعة من الوطن في قبضة الاحتلال.

مرّت سنوات على ذلك، حين قمت -وضمن زيارة للأردنّ- برحلة إلى البحر الميّت. تهبط السّيّارة من عمّان المدينة الجميلة الرّابضة فوق جبال سبعة إلى غور الأردنّ، أكثر مناطق العالم انخفاضاً، يقال إنّ لعنة في الزّمن الغابر حلّت على قوم من الأقوام استوطنوا الغور فأحالت بقعتهم إلى منخفض، أكثر مناطق العالم انخفاضاً. أوتوستراد عريض أنشئ حديثاً بتمويل الدّول المانحة للقروض بعد توقيع اتّفاق وادي عربة اسمه: «أوتوستراد السّلام».!

مساء نعود، كان الليل قد أسدل ستاره، نقطع الأوتوستراد المحاذي للبحر الميت، البحر الذي لا حياة فيه، باتّجاه العودة لعمان. وعلى الضّفة الأخرى من البحر، على بعد مئات قليلة من الأمتار أيضاً تقع فلسطين! كانت أنوار المستوطنات الزّراعية الإسرائيلية تتلألأ، بقع من النّور موزّعة بين مساحات ظلام. داهمني شعور غامض ومربك: هي أقرب نقطة أرى

منها فلسطين، النّشيد الأوّل الذي حفظناه عن ظهر قلب منذ مقعد الدّراسة الأوّل في المدرسة الابتدائيّة القديمة. اسم أول مجلّة حائط أصدرناها في المدرسة كان فلسطين، واسم أوّل فريق كرة قدم للهواة تأسّس في الحيّ كان فلسطين، وأوّل هتاف أطلقناه في مظاهرة كان فلسطين. ها هي هنا على مرمى حجر، مُزنّرة بالمستوطنات، بيننا وبينها بحر ميّت لا حياة فيه، وإليها يقود أوتوستراد سلام مغلق في نهايته.

للخسارات تجليّات أخرى:

هل بوسعنا تخيّل طبيعة المشاعر التي تنتابنا حين نقرأ أسماء رموز أدبيّة وفكريّة من طراز ومقام سعدالله ونوس، وجبرا إبراهيم جبرا، ومحمد مهدي الجواهريّ، وغائب طعمة فرمان، ونزار قبّاني، وجميل حتمل، والباهي، وإميل حبيبي وسواهم كعناوين فصول بين دفتيّ كتاب؟!.. ثم ما هي طبيعة المشاعر التي تنتابنا حين نعلم أنّ الفصول التي عُنونت بأسماء هؤلاء العمالقة هي من كتابة روائيّ بوزن عبدالرحمن منيف؟!

عنوان الكتاب: (لوعة الغياب) يقدّم مفتاحاً مُهمّاً للحال النّفسيّة التي يقترحها علينا الكاتب. فنحن بصدد رموز فكريّة وثقافيّة، هي فلذات من تاريخنا الثّقافيّ المعاصر غيّبها الموت جميعاً. وكأنّ الكاتب -بهذه الطّريقة- لا يقوم بتحيّة زملاء وأصدقاء له جمعه بهم الإبداع، وفرّقهم عنه الموت، قبل أن يخطفه هذا الموت هو شخصيّاً بعد سنوات قلائل من صدور الكتاب، وإنّما أيضاً ليقدّم مساهمة شخصيّة له من واقع المعرفة الدّقيقة بتجارب هؤلاء الرجال في كتابة تاريخ حياتهم والتّعريف بإبداعهم.

تلحّ على الذّهن فكرة كنت قد قرأتها على لسان منيف نفسه وجّهها للجيل العربيّ الجديد قائلاً: «إنّ الجيل الذي سبقكم، رغم أنّه لم يحقّق الكثير، لكنّه

واجه ظروفاً صعبة ورياحاً غير مؤاتية، وهذا ما جعل الحصيلة متواضعة، رغم أنّه كان في محاولته صادقاً ومليئاً بالنوايا». ثمّ واصل الحديث عن أنّ الجيل الأسبق يخلي الأمكنة للجيل الجديد، الذي عليه أن يكون أكثر وعياً وأكثر استعداداً وشجاعة وهو يتقدّم ليحتلّ مواقع «المحاربين القدامى».

هل ثمّة علاقة بين موضوع كتاب (لوعة الغياب) وفكرة منيف نفسه عن أنّ حصيلة الجيل، الذي يقدّم في كتابه صورة من مساهمات كوكبة من أبرز رموزه، كانت حصيلة متواضعة، رغم أنّ الكتاب يتوقّف تحديداً حول تلك المساهمة الفنيّة التي أسداها هؤلاء للفكر وللثّقافة العربيّين؟ هل كنّا نتقدّم على صعيد الإبداع ونتقهقر على صعيد السّياسة والتّحوّل الاجتماعيّ؟ هل كان الإبداع شاهداً على هزائمنا وخيباتنا، حتّى لو ظلّ هذا الإبداع في أصعب اللحظات رافعة معنويّة لنا؟!

بعض الجواب عنْ هذا السّؤال نجده في المصائر الشّخصيّة الفاجعة للعديد من الأسماء التي يحتفي بها منيف في كتابه: الجواهريّ الكبير مات ودفن بعيداً عن مسقط رأسه، وجبرا إبراهيم جبرا لم تعد فلسطين بالنّسبة له أكثر من ذاكرة بعيدة، ودفن غائب طعمه فرمان في صقيع موسكو بعيداً عن دفء العراق وشمسها «ونخلة الجيران»، واقتات السّرطان من جسد سعدالله ونوس حتّى الموت. إنّ الوطن لم يتحمّل مبدعيه، ضاق بهم ذرعاً، وداهمهم الموت في الغربة وهم في جلال الشّيخوخة، وبعضهم بالكاد يودّع الكهولة، وبهم غصّة على الحلم الذي كتبوه.

للخسارات تجلّيات أخرى أيضاً:

تحملنا الحياة على أن نغيّر أماكن سكنانا مرّة أو أكثر، وبالنّسبة للبعض مرّات، وللبعض الآخر مرّات كثيرة أو عديدة. تتعدّد الأسباب ولكنّنا في

الأخير نجد أنفسنا محمولين على ترك بيوت ألفناها لبيوت جديدة علينا أن نخلق معها ألفة ونؤسّس معها علاقة ونبني ذاكرة للمستقبل.. وحتّى حين يتمّ أمر انتقالنا إلى مكان جديد بإرادتنا الحرّة، برغبتنا في تغيير سكننا القديم بسكن جديد فإنّنا لا ننجو من الشّعور بشيء أقرب إلى الأسى أو حتّى الفقد لأنّنا نخلّف وراءنا مربعاً من مرابع الذكرى.

شخصيّاً ألفت هذا النّوع من التّنقّل من سكن لآخر. لقد حدث ذلك عدّة مرّات في حياتي، وفي كلّ مرّة أنهي فيها علاقتي بسكني القديم ينتابني ذلك الشّعور الغريب بالأسى وحتّى الحزن. في كلّ مرّة تسيطر على النّفس حال أشبه بتلك التي تنتابنا حين نفارق عزيزاً أو نودّعه، أذكر ما فعلته مرّات حين أقف كالحائر أرقب العمّال وهم يجمعون كلّ شيء ليضعوه في صناديق أو حقائب: الملابس والكتب والأوراق وأدوات المطبخ والحمّام، ثمّ يحملون كلّ ذلك إلى سيّارة الشّحن المنتظرة أسفل البناية في سرعة؛ لأنّهم على عجلة من أمرهم، لا شيء في الذي يعبّئونه يعنيهم في أمر. الكتب في كلّ الأمكنة ولدى كلّ الأشخاص بالنّسبة لهم سواء وكذلك الأوراق والملابس والأشياء. كلّ تلك أمور محايدة لا يجمعهم بها جامع. علاقتهم المحدودة بهذه الأشياء لا تتجاوز السّاعات القليلة، يضعونها خلالها في (كراتين) ثمّ يرفعونها بكلّ همّة على أكتافهم وبسرعة يهرعون بها إلى السّيّارة المنتظرة، ثمّ يعيدون إنزالها إلى مكان السّكن الجديد يتركونها على أرض البيت ويعودون إلى حال سبيلهم. أمّا أنت فتتأمّل كلّ شيء من هذه الأشياء باهتمام.

كلّ كتاب وربّما كلّ مسوّدة مكتوبة وكلّ شيء يمثّل بالنّسبة لك فكرة أو يحيلك إلى ذاكرة، وأحياناً تكون هذه الأشياء متناهية الصّغر أو شديدة الرّمزية، وهنا يكمن سحرها: التّحف واللوحات وهدايا الأحبّة والكتب التي دوّختك يوماً.

ليست الأشياء وحدها ما يشدّ ويبعث في نفسك كلّ هذا الدّفق من المشاعر، وإنّما الحيّز الجغرافيّ للبيت الذي تغادره. في كلّ زاوية من الزّوايا ثمّة ذكرى، وحين يرفع العمّال المقاعد على أكتافهم ربّما تخطر في ذهنك الوجوه التي ألفت أنسها على هذه المقاعد. يمكن للمكان أن يكون صديقاً طيّباً، لذا فإنّ شعورك بفقده يضاهي شعور فقد الصّديق الطّيّب. وتذهل حين تكتشف أنّ الذّاكرة مخادعة لهذا المقدار؛ إذ إنها تختزن في قاعها من التّفاصيل والوجوه والأحداث ما يدهشك حين تجعلها تتقافز أمام ناظريك.

مرّة تعمّدت أن أنسى بعض الأشياء في شقّة تركتها إلى أخرى، أن أتجاهلها لحظة جمع كلّ شيء، علّني أخلق لنفسي مبرّراً لإلقاء ما يمكن وصفه بالنّظرة الأخيرة. صبيحة اليوم التّالي ذهبت متذرّعاً بجلب ما نسيت هناك. كانت الشّقّة أشبه بحقل هبّت عليه عاصفة فبعثرت زرعه. أوراق جرائد مبعثرة في الغرف والممرّات، ملابس قديمة، أقلام رصاص وألوان شمع وبقايا رسومات طفليّة على الأرض العارية. ساهماً رحت أتأمل كلّ شيء، كلّ زاوية بعناية، كدت أسمع صدى قهقه هاربة من الطّفولة، كدت أشم رائحة سافرت بي يوماً إلى بعيد، وطاف في البال وجه أليف. كان عليّ أن ألاحظ أنّنا إذْ نفقد المكان فإنّنا نفقد الزّمن أيضاً، الزّمن الذي اقترن بالمكان الذي نغادره بات ماضياً، لكنّنا ننتبه إلى ذلك فقط حين يصبح هذا المكان خلفنا، فنفقه أنّ الزّمن هو كذلك بات خلفنا، وأنّ الحياة كعهدها دائماً تزجّ بنا من اختبار إلى آخر.

سنوات إقامتي في دمشق، كنت وأصدقاء نبحث عن شقّة للسّكن. أخذنا صاحب مكتب عقاريّ يتولّى أمور التّأجير والبيع وما يعرف بالسّمسرة إلى عدّة شقق. بين يديه مجموع مفاتيح، ربط كلّ مفتاح بخيط تتدلّى في نهايته قطعة صغيرة من البلاستيك لصق فوقها ورقة كتب عليها

رقم الشّقّة حتّى لا تختلط المفاتيح عليه. ومن شقّة إلى أخرى حتّى وجدنا ضالّتنا: شقّة مناسبة بدت مرتّبة وفيها العدد الكافي من الغرف. كان الوقت مساء وكان الرّجل يأخذنا من غرفة إلى أخرى، هو في المقدّمة ونحن خلفه، ما إن يدخل غرفة حتّى يُشعل النّور ويروح يسهب في مديح الشّقّة وإبراز محاسنها، كما هي عادة من يمارسون هذه المهنة، حتّى في العيب يمكن أن يجد ميزة، فلو قلت له إنّ الشّقّة رطبة سيقول لك: لكنّها في الصّيف باردة جداً، وإن قلت له إنّها معتمة بعض الشّيء وشبابيكها لا تطلّ على فضاء مفتوح سيقول لك: لكنّها في الشّتاء تكون دافئة جداً. ونحن نتنقّل معه بين الغرف دلفنا إلى غرفة ضمّت مكتبة كبيرة ملأى بالكتب، ولأنّ أكثر من واحد بيننا كان مصاباً بلوثة الكتب فقد انصرفنا لتأمّل العناوين وراء زجاج المكتبة، ونسينا مؤقّتاً أمر الشّقّة.

أدهشني ما أرى: كتب في الفلسفة وفي الفكر والتّاريخ، دواوين شعر وروايات وقصص وترجمات من لغات أجنبيّة لأسماء معروفة في الأدب العالميّ، وأيقنت على الفور أنّ الشّقّة تعود لمثقّف. لقد شعرت أنّ الشّقّة دافئة جداً كما قال السّمسار، لكنْ ليس بالمعيار الذي كان يتحدّث هو به، وشعرت أنّ صاحبها صديقي، لا بل أخي، لا بل شقيقي. حين تقرأ الكتب نفسها التي يقرأها شخص آخر تنعقد بينكما صداقة سريّة أو أخوّة سريّة كما يعبّر ميلان كونديرا، وبدافع الفضول سألت عن اسم صاحب الشّقّة، لم يتذكّر السّمسار اسمه الأوّل ولكنّه ذكر اسم عائلته، ولا أذكر أنّ اسم العائلة منفرداً عنى لي شيئاً بسبب جهلي بتفاصيل البلد الذي نحن في عاصمته نبحث عن شقّة للسكن، لكنّنا سألنا: وأين هو الآن؟.. فردّ السّمسار فيما يشبه الوشوشة، أو على طريقة همس المحكوم من وراء ظهر الحاكم كما يقول جيمس سكوت: «بيني وبينكم.. إنّه مسجون».

ولم تكن ثمّة مدعاة طبعاً لنسأل عن السّبب الذي يجعل رجلاً اطّلع على هذه الكتب مسجوناً. بالتّأكيد لم يكن سارقاً أو قاتلاً أو محتالاً في البنوك والأموال. سبب سجنه هو أنّه كان مثقّفاً، إنّه كان مصاباً بلوثة الكتب.. قال السّمسار إنّه سجين سياسيّ وأردف إنه من جماعة (.....)، وسمّى إحدى الجماعات السّياسيّة اليسارية المحظورة، وحين ذهب الفضول بأحدنا للسّؤال منذ متى وهذا الرّجل في السّجن، قال: «أوه.. منذ كان شابّاً. هذا كان منذ زمن بعيد، منذ عشر أو خمس عشرة سنة».

كان الرّجل يتحدّث عن السّنوات كما لو كانت أياماً، أي أنّه لم يلحظ الفرق بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة، بدا لي أنّه لا يدرك بعد ما الذي تعنيه خمس سنوات إضافيّة في السّجن، كان يتحدّث كما لو كان الأمر يتّصل بأيام أو أسابيع أو حتّى شهور فحسب.. رغم أنّه ختم حديثه بالدعاء: فرّج الله كربته.

بعد هذا الحديث لم تعد الشّقّة ضالتنا التي ظنّنا أنّنا عثرنا عليها. لم يكن ممكناً السّكن في مكان تشعر أنّ صاحبه يتلقّى سياط البرد في ليالي الشّتاء فيما أنت نائم ملء جفونك في بيته حتّى لو كنت تدفع لعائلته إيجاراً شهريّا.. مضى على هذا الحديث أكثر من عشرين عاماً. لا أدري إذا كانت كربة ذلك الصّديق المجهول الذي لا نذكر اسمه قد فرجت أم لا، لا ندري إذا كان قد عاد إلى شقّته وكتبه.. أم أنّ صقيع الزّنزانة وقيظها يأكلان من جسمه الذي كان غضّاً وقويّاً يوم دخل السّجن أوّل مرة.. يوم كان شابّاً.. منذ عشر سنوات أو ثلاثين سنة على رأي السّمسار!

***

للفقدانات تجلّياتها.

المطر يجعل السّماء أقلّ ارتفاعا، كأنّها تختار أن تهبط قليلا رأفة بالأمطار كي لا تخدشها أحجار أرضنا، كأنّها تصطفي يوماً كسولاً، لذيذا مثل هذا فتهبط كأنّها تحرّضنا على الصّعود نحوها.

وفي نفس كلّ منّا يوقظ المطر ذاكرة ناعسة، أخذها الوسن لكنّ نومها خفيف. أحلى مطر كان مطر الطّفولة. مطر بيوت الطّين التي كانت «مرازيم» المطر المصنوعة من قطع الخشب مثبّتة أعلاها، وكان المطر ينهمر، يضجّ بالفرح وبالوعود، ونحن بأوانينا الصّغيرة نركض باتّجاه المطر المنحدر غزيراً من «المرازيم»، لنملأها ماء، يستخدمه الكبار فيما بعد للطّبخ أو لصنع الشّاي أو القهوة. كان لطعم الشّاي المصنوع من مياه المطر مذاق آخر يغمر القلب بنشوة حنون.

بعد سنوات، حين سرق العمر الطّفولة، وفي بلاد أخرى نائية، جرّبت أن أشرب الشّاي المصنوع بماء المطر، لم أستعد ذلك الطّعم الذي كان في الطّفولة، ألأنّ مطر الوطن أحلى أم لأنّ للطّفولة طعمها الذي لا يستعاد أبداً؟! أم لأنّ العمر سكب قطراته المرّة في أمطارنا فما عاد لها المذاق العذب الذي كان؟

لا يبعث المطر الشّجن وحده، وإنّما الحزن أيضاً في بعض الأحيان. ذكرى سعيد وهاشم ترتبط في ذاكرتي بالمطر، ولذلك حكاية.

في شتاء بغدادي قارس، في عام 1976 أتى صديقي الشّاعر سعيد العويناتي في زيارة إلى بغداد التي كان يعشقها. درس سعيد في قسم الصحافة بكلية الآداب في جامعة بغداد، وتخرّج منه، قبل أن يعود إلى البحرين ليعمل في الصحافة.

جلت مع سعيد الذي يعرف شوارع بغداد ومقاهيها في أماكن كثيرة، كان مليئاً بالحياة ومنتشياً بوجوده في المدينة التي أحبّها، والتي أنضجت موهبته الشّعرية، وذات ليلة باردة ضمّتنا سهرة لطيفة، مع أصحاب من العراق والبحرين في بيت بمنطقة ميسلون ببغداد الجديدة. كان سعيد فرحاً ومتألّقاً، وقرأ علينا شعراً طازجاً كان قد كتبه للتوّ. فيما كنّا ننعم بدفء البيت، كان مطر غزير يغسل الشّوارع، ولم يخطر في ذهن أحد أنّ أسابيع قليلة فقط تفصل هذا الشّاعر عن الموت.

بعدها كلّما تركت العنان للتّذكّر، حضرت تلك الليلة الممطرة -التي اقترنت في ذهني بالمصير الفاجع لسعيد وهو في عز شبابه وتألّقه- حضرت على البال.

خبر رحيل هاشم، جاءني هو الآخر، في يوم خريفيّ غائم وبارد، كنت في فرنسا أشارك في المهرجان السّنوي لجريدة (لومانتيه)، حين خابرني صديق ليحمل النّبأ. قال إنّ الفتى الذي حمل روحه على كفّه مات. خرجت إلى شوارع المدينة على غير هدى، كالتّائه. باريس لم تعد مدينة للنّور، تفاقم إحساسي بالوحدة والغربة، وبدت لي الشّوارع موحشة وكئيبة. وفي غمرة هذا الحزن انهمر مطر غزير، ودبّ في داخلي ألم من ذاك الذي لا تعرف مصدره، قدماي عجزتا عن حملي وشيء كدبيب النّمل اجتاح جسدي، اختنقت مقلتاي حتّى أوشكتا على البكاء، وكأنّ نصلاً ماضياً اخترق كلّ ما في النّفس من مشاعر مطمئنّة فمزّقها إرباً.

***

للفقدانات تجلّيات مختلفة.

ذات أمسية شتويّة باردة -أيضاً- من أمسيات كانون 1980 في بيروت،

دعاني عبدالله الرّاشد البنعليّ إلى بيته. قال تعال على العشاء. تصوّرت تلك واحدة من الدّعوات الاعتياديّة التي ألفناها. ذهبت بمعيّة المرحوم حميد عواجي، وصلنا وجلسنا في صالون بيته لتستقبلنا زوجته المضيافة حياة شاهين، أو أمّ غسّان كما كنّا نسميّها نسبة إلى ابنها البكر غسّان. لفت نظري بعد حين أنّ أصدقاء آخرين أخذوا في التّوافد: عبد الهادي، يعقوب، عبد الجليل، وما أن استتبّ للجميع الجلوس حتّى بادر عبدالله بالقول موجّهاً حديثه إليّ: يؤسفنا الخبر الذي وصل من البحرين عن وفاة والديك.

منذ أنْ غادرت البحرين لم يتسنَّ لي أنْ التقي بأحد من أفراد عائلتي. مرّة عرفت أنّ والدي كان في زيارة المراقد المقدّسة في العراق، فذهبت إلى الكاظميّة لأقابل هناك زوّاراً من السّهلة أخبروني أنّ الوالد في النّجف أو كربلاء، ذهبت إلى هناك في اليوم التّالي أو بعده بيوم لأعرف أنّه سافر إلى إيران، وهكذا ضاعت الفرصة الأخيرة للقاء به.

كان قد أصيب بشللٍ أقعده نهائيّا عن الحركة في أواخر حياته، أمّا والدتي فكنت أحدّثها بالتّلفون بين الحين والآخر وأطمئنّ على أحوالها. والحقّ أنّ هذا البعد عن الوطن والشّعور المهيمن بأنّ العودة إلى هذا الوطن ليست متيسّرة قريباً أو متاحة قد جعل من فكرة تلقّي أنباء سيّئة فكرة واردة ومتوقّعة، لكنْ لم يخطر في ذهني أبداً أنْ أتلقّى نبأ وفاة أمي وأبي معاً في آنٍ واحدٍ.

كان ذلك خبراً فوق طاقة المرء على التّوقّع، فهمت فيما بعد أنّ والدتي ماتت بسكتة قلبيّة مفاجئة. لقد نامت في الليل وهي في كامل صحّتها، في الصّباح كان أحفادها من أبناء وبنات أخويّ قد اعتادوا أنْ توقظهم وتهيئ لهم بعض أمورهم قبل الذّهاب للمدرسة، لكنّهم في ذلك اليوم افتقدوها. لقد لاحظوا أنّها لم تنهض من فراشها، ولم يفطن أحد لما حدث، فقد ظنّوا أنّ

النّوم قد غلبها ذلك الصّباح، وحين أرادوا التّحقّق من الأمر اكتشفوا بأنّها قد أسلمت الرّوح.

فيما بعد أخبرتني أختي أنّ الخبر لم يقل لوالدي الذي كان في دار العجزة، لقد أخفوا عنه الخبر لعدّة أيام خوفاً عليه، ولكنّ إحساساً طاغياً لديه بأنّ أمراً سيّئاً قد حدث جعلهم يخبرونه بالنّبأ الفاجع، ولم يطل به الأمر كثيراً فسرعان ما أسلم هو الآخر الرّوح بعد أقلّ من أسبوع من وفاة أمّي.. أمّا أنا فلم أعرف بأمر وفاتهما إلا بعد حين، كان ثمّة منْ قرّر أنّ وقع خبر كهذا عليّ سيكون مؤلماً وقاسياً، وقرّروا في العائلة عدم إبلاغي، لكنّ خبراً كهذا لم يكن من الممكن أنْ يبقى سرّاً، رفاقي من الطلبة البحرينيين الدارسين في دمشق قرأوا تعزية لي من أسرة الأدباء والكتّاب لي بوفاة والدي منشورة في إحدى الصحف البحرينية، وهكذا وصل الخبر للرّفاق في بيروت الذين قرّروا في ذلك المساء إبلاغي به بالطّريقة التي شرحت.

بعد ذلك بسنوات، وفي مناسبة يوم الأم، سأستعيد هذه الحادثة المؤلمة بالنّص التّالي:

«نحن الذين ظنّنا أنّنا غادرنا الطّفولة منذ سنوات عديدة، لماذا في هذا اليوم ينتابنا هذا الشّعور القويّ بأنّ الطّفولة تكبر فينا؟!

أذلك لأنّ الأمّ المفتقدة في يوم الأم تأتي في حضور بهيّ، بكلّ ما في الحزن من جلال، فتمسح عنّا تعب السّنين، وتعدّ للمساء المسافر باقات الياسمين، وتلهج بآياتها لتمنحنا الحياة دلالها، وتطوف بنا في دنيا المباغتات التي ظنّنا أنّ وهجها قد انطفأ، فإذا بالجذوة تتقدّ بأحزان الحنين.

عشرون سنة إلى الوراء وربّما أكثر تغادر أيّها الفتى المقبل على الحياة برأس يضجّ بالأحلام والأفكار وفسح الورد، تغادر دارك، وكطير لا يحتمل

البعد عن عشّه تعود بعد عام لتشاهد ثوب النّشل الأخضر راية فوق هامة البيت احتفاء بك أنت الغائب العائد يرفرف بنسمات ذلك اليوم المضيء.

لكنْ في الرّحيل الثّاني سيطول الغياب، سيطول كثيراً بما لا طاقة لقلب أمّ أنْ يتحمّله، هي التي ستنشغل بأدعية وقرابين لكي تعود. وفي مساء حزين في مدينة متوسطيّة يأتيك النّبأ، وفي غمرة إعصار الحزن والفجيعة والإحساس الأليم بمرارة الفقدان تتراءى لك صورة ثوب النّشل الأخضر الذي رفرف في ذلك الصّيف على هامة البيت، ذكرى ذلك العناق الحارّ ودموع الفرح التي هطلت على وجنتيّ الأم.

كانت أراضي الله واسعة. وكانت سنوات التّيه طويلة، أنت لم تعدّ الليالي ولا الأيام، هي التي فعلت ذلك، هي التي سهرت الليالي ومضغت مرارة الأيام منتظرة العودة المؤمّلة. لم تكبر على يدها، كما شئت، كما شاءت، وحين رحلتَ أقسمتَ أنّك عائد قريباً. لكنْ لم تف بالوعد، فيا للعقوق!

تعود المراكب للمرافئ، والأحبّة للأحبّة. وبعد هذه السّنوات هبْ أنّك عدت ذات يوم مشرق لدارك الأولى، لسطح البيت الأوّل، الذي تأمّلت منه نجوم السّماء، لمرابع طفولتك وصباك ولهوك، لأشيائك الصّغيرة ودواوين الشّعر التي خلّفتها وراءك، ولواحة النّخيل التي في الجوار، وللمطرح الذي رمقتك فيه الصّبية الأولى بأولى نظرات الدّهشة، منْ سيعوّض لك حينذاك عناق الأمّ، منْ سيمنحك روائح العنبر والمسك والعود وماء الورد التي تشرّبتها ثيابها من صندوقها الحميم؟

للمرء متّسع دائماً أنْ يكفّر عن خطاياه، له متّسع دائماً لكي يعتذر عن كلمة سبّبت أسى أو جرحاً، أو عن فعل لم يكن في محلّه. فهل تكفّر كلمة الوفاء للأمّ الغائبة عن وعدٍ قطعه الفتى على نفسه، ولكنّ الظّروف خذلته فلم يفعل؟!

ستظلّ هذه الذّكرى تشغلني، واليها سأعود في نصوص تالية، بينها نصّ بعنوان: «وصايا الأمّ»:

«يا صغيري..!

أناديك هكذا، رغم أنّك تذهب مسرعاً إلى كهولتك، ليقيني أنّك ستبقى طفلاً. أتذكّر المرّات الكثر التي قلت لك فيها: متى ستكبر؟، وبعد حين أدركت أنّ الطّفولة ستبقى معك وفيك. كمْ عذّبني هذا الشّعور يوم أخذتك الحياة إلى متاهاتها وحيداً، وكنت أعلم أنّك لن تتذكّر وصاياي، وإن تذكّرتها فلن تأخذ بها، شأنك شأن كلّ الأبناء الذين يحفظون عن ظهر قلب كلمات أمهاتهم ويعملون بعكسها.

لقد حلمت! فرأيت السّلال الهشيمة على شرفات سنينك، وبدت لك كطيف لا يلمس ولا يمكث، إطلالة وجهك المندهشة، حلم أخذني سنوات إلى الوراء، إلى دنيا من براءة وأضواء وأغان، واستعدت تلك الوخزة القديمة يوم داهمني شعور غامض، هو ذاك الذي يسمّونه إحساس الأمّ بأنّك لنْ تتدرّج في العمر على يديّ، وستذهب وحيداً إلى مرافئ وشطآن ومدن مسكونة بالبرد والغربة، وستهفو إلى حضن الأم، ودفء البيت.

هائم بحروف الأسماء الفيّاضة بالمعاني، ولكنْ عند منعطف العمر سينالك التّعب، وستقول سأذهب للنّوم باكراً هذا المساء، كأنّك تحنّ لنجمة شاردة، لقمر بري ما برح راسخاً في ذاكرة الطّفولة، كأنّك والج إلى مدارات أخرى. لقد حلمت يا صغيري، وحيّرتني في الحلم إطلالة وجهك المندهشة، كأنّك لم تكبر، كأنّي لم أنأَ عنك كلّ هذا البعد. كنت أحسب أنّه كلّما كبر المرء تضاءلت مقادير الدّهشة عنده، ولكنّني رأيتك مأخوذاً بالسّؤال، بسحر منْ يجرّب الأمور أوّل مرّة.

ووجدتني أعيد عليك وصاياي القديمة: اذهب بعيداً، ولكنْ تذكّر طريق العودة، طريق العودة أصعب وأطول عادة من طريق الذّهاب. احتفظ بجنونك ولكنْ تَوّجْهُ بالحكمة، كنتَ تسألُني كيف يمكن جمع النّقائض؟! وكنتُ أقول إنّ المخلوقات الفاتنة المعجونة ببسالة الفارس وجمر الرّوح هي حاصل جمع نقيضين.

أباغتك بحلمي، أحنو عليك، أهبك بركاتي، وأعيد عليك وصاياي للسّماع فقط.»

***

ستتكرّر علاقتي مع الفقد بعد ذلك أكثر من مرّة بالطّريقة ذاتها. فبعد سنوات جاءني خبر وفاة أخي الأكبر (ميرزا) بعد معاناة مع مرض الكبد الوبائيّ الذي أصابه ولم يُشخّص في وقت مبكّر. أذكر أنّ رسالة جاءتني بالبريد على عنواني في سوريا بعد فترة من وفاته.

علاقتي مع هذا الأخ شديدة الخصوصيّة والتّعقيد. كان فارق السنّ بيننا كبيراً، بحيث أنّ أكبر أبنائه من زواجه الأوّل، حسن، هو في عمري تماماً، وكان يعاملني كابنه. كان رجلاً ذكيّاً ومستقيماً وحادّ المزاج، وكان يتعشّم فيّ الكثير، لذلك أبدى اهتماماً كبيراً بمسألة تعليمي ومتابعة درجاتي في المدرسة، كان يقول دائماً إنّ ما لم يستطع تحقيقه هو لنفسه بسبب الظّروف الصّعبة يريد أنْ يتحقّق لي. وحين ابتدأت إصابتي بلوثة الأفكار الجديدة كانت صدمته شديدة فيّ، لم يستطع تحمّل فكرة أنّني سأسير في طريق غير الذي تصوّره هو لي.

كان خائفاً عليّ، لذلك حين فصلت من المدرسة، ثمّ حين اعتقلت أوّل مرّة كان يكرّر القول: هذا ما كنت أحذّر منه، هذا ما كنت أخشاه. أذكر يوم

ودّعته عند سفري للقاهرة أوّل مرّة للدّراسة أنّه بكى بمرارة وهو يوصيني بأنْ أهتمّ بنفسي، وأكون حذراً في الغربة.

مرّت سنوات لم أفق فيها من صدمة وفاة أمي وأبي ثمّ أخي الأكبر، لتأتيني صدمة أخرى لا تقل وجعاً. كنت قد غادرت سوريا إلى موسكو للدّراسات العليا. وفي شتاء عام 1990 جاءني هاتف من البحرين يلغني بأنّ أخي الأوسط قد توفي هو الآخر في حادث سيّارة كان يقودها ابنه الأكبر محمد، وفي الحادث نفسه توفيت إحدى بنات أخي الأكبر أيضاً.

كانت دورة الفقد قد أكملت نفسها في عائلتي. هكذا أصبحت الوحيد الباقي بين أخواني، وجرت كلّ هذه الفقدانات في غيابي المديد عن الوطن.

في ثاني أو ثالث أيام العيد بعد عودتي الأولى للبحرين، عرجنا على المقبرة لزيارة أضرحة من فقدت. كان هناك خمسة أضرحة تعنيني مباشرة: أمي وأبي وأخي الأكبر ميرزا وأخي الأوسط جعفر والطّفلة الصّغيرة التي ماتت في حادث السّيّارة إياه. خاشعاً بصحبة من كان معي وقفت أمام تلك القبور، وخطر في ذهني ساعتها أنّ الموت حصد الكثيرين من أعزّائي ولكنّني لم أعش تلك التّجربة عن قرب، لقد كنت أتلقّى النّبأ بعد الفراغ من كلّ شيء، بعد أن يكونوا قد دفنوا وانتهى العزاء. لم أعش أبداً تجربة الاحتضار أو الدّفن أو العزاء في مأتم أيّ من أهلي القريبين.

تقع المقبرة التي ينام فيها أهلي في منتصف المسافة بين السّهلة الجنوبيّة والسّهلة الشّماليّة، وكما هو معروف فإنّ شارعاً رئيسيّاً للسّيّارات يفصل بين القريتين. تقع المقبرة في الطّرف المحاذي للسّهلة الشّماليّة من الشّارع، فيما كان مغسل الموتى يقع في الطّرف المحاذي للسّهلة الجنوبيّة.

في صباي حين كنت أعود البيت متأخّراً في الليل قادماً من المنامة أو

من أيّ مكان آخر، كان عليّ بعد أنْ أنزل من باص النّقل العام قطع المسافة بين الشّارع العام وبيتنا مشياً على الأقدام، ولكي أختصر الطّريق فإنّي كنت أفضّل شارعاً جانبيّاً يؤدّي إلى الحيّ الغربيّ من القرية مباشرة دون الحاجة إلى قطع القرية كاملة.

في النّهار يبدو هذا الطّريق عاديّاً تماماً، لكنْ في الليل يبدو موحشاً؛ لأنّه يقع بمحاذاة المغسل، وكنت أتحاشى المرور من أمام هذا المغسل مباشرة بعبور أحد جداول مياه عين عذاري قاطعاً دعامة من جذع النّخل توصل بين ضفّتيه، وأذكر أنّ الكلاب السّائبة أو الضّالة غالباً ما تتدافع في نباح متواصل حين تحسّ بحركة مشي، وكنت أنحنى لالتقاط أحجار من الأرض لرميها في وجه هذه الكلاب كي أتحاشى أذاها. كان أخي الأكبر يكرّر مستنكراً تأخّري في العودة إلى البيت ليلاً ومروري في ذلك الطّريق بالذّات: كيف تجرؤ على ذلك؟!.. ألا تخاف؟!. وحين أستذكر هذه الوقائع، بعد هذه السّنوات، أندهش حقيقة لما كنت أفعله.

في إحدى سنوات إقامتي في دمشق سكنّا في شقّةٍ تقع في عمارة تطلّ على مقبرة كبيرة في منطقة مزّة البلد. في الليل من شبّاك الشّقّة التي تقع في دورٍ مرتفع كان منظر المقبرة في الليل من علو مهيباً، بعض القبور العائدة لموتى جدد تُضاء من حولها بالشّموع أو القناديل المشتعلة بالكيروسين وهي تبدو من فوق باعثة على الوحشة والأسى.

كانت جنازات الموتى الجدد تعبر الطّريق الطّويل المؤدّي إلى المقبرة بحشد من السّيّارات في مقدّمتها سيّارة خاصّة أشبه بسيّارات الإسعاف مجلّلة بالسّواد وبأكاليل خاصّة من الأغصان والزّهور وتُثبّت عليها مكبّرات للصّوت تبثّ منها تلاوة للقرآن الكريم، ومن الشّارع تتوجّه إلى المقبرة ليوارى الميت الثّرى،

علامة أنّ الميت جديد كانت تلك الأضواء المحاطة بالمقبرة في الليل. أما رؤية المقبرة في النّهار من الشّباك نفسه فتمنح رؤية أخرى، حيث تبدو هذه شاسعة ومليئة بالخضرة التي تتخلّل المسافات بين القبور.

لم أجد شيئاً من هذه المظاهر في مقبرة السّهلة عندما ذهبت ثاني أو ثالث أيام العيد، كانت أميل للتّواضع، وتميّز القبور العائدة لمن يصنّفون في عداد "السّادة" المنحدرين من سلالة الرّسول بربط منديل أخضر اللون على شواهدها، كما كان حال قبر أمّي، وتحت تأثير الشّمس القويّة فإنّ لون المنديل بات باهتاً دون أنْ يفقد بقايا لونه الأخضر.

لم أشعر أبداً برهبة تلك العبارة التي تتحدّث عن صمت القبور كما شعرت بها حينذاك وأنا أقف أمام ضريح والدي ووالدتي. كان يمكن لتلك اللحظة المهيبة من الصّمت أنْ تتحوّل إلى شريط طويل من الأحزان ومكابدات الفقد وقسوة المصائر التي مررنا بها.

حضرتني لحظتها عبارة مؤثّرة كانت إحدى بنات أخي قد كتبتها لي في رسالة وأنا في موسكو. كانت هذه الفتاة طفلة رضيعة عندما غادرت البحرين، لقد كبرت كشقيقاتها وأشقائها خلال سنوات الغربة الطّويلة، وعاشت فقدان جديها ووالدها وعمها، ومن هنا كتبت: «لقد مرّت علينا أحزان كثيرة في غيابك. كنّا خلالها نفتقدك، ونودّ لو كنت معنا».

لقد عدت أخيراً. لكنّني عدت متأخّراً، متأخّراً كثيراً.

***

زرت موسكو مرّات عديدة قبل أن أذهب إليها للدّراسة. كانت الكثير من المؤتمرات الطّلابيّة والشّبابيّة والإعلاميّة التي شاركت فيها قد عُقدت

هناك. ومن الأنشطة التي أذكرها بشكل خاصّ مهرجان الشّبيبة العالميّ الثّاني عشر الذي عقد في صيف 1985.

موسكو مدينة واسعة كبيرة مترامية الأطراف، إذا ما استثنينا مركزها التّقليديّ الذي يحمل معالم تاريخيّة وعمرانيّة مميّزة، فإنّ أحياءها السّكانيّة الأخرى في المناطق المختلفة تبدو متشابهة ويصعب التّمييز بينها، وكانت تلك سمة عامّة لبقيّة المدن السّوفيتيّة.

أذكر أنّ فيلم «حمّام الهناء» الذي كان يبثّ من التّلفزيون السّوفيتي عشيّة كلّ رأس سنة يعالج فكرة التّشابه هذه بشكلٍ كوميديّ. تدور حكاية الفيلم عن عريس يذهب إلى حمّام بخاري، عشيّة عقد قرانه جرياً على العادة التي ألفها العرسان في ذلك البلد المدهش، ثمّ إنّه وجرياً أيضاً على عادة الرّوس في مثل هذه الحالات احتسى الفودكا بطريقة مبالغ فيها.

كان عليه أنْ يأخذ الطّائرة إلى مدينة أخرى حيث تنتظره عروسه، وتحت تأثير السّكر الشّديد وجد الرّجل نفسه يصعد الطّائرة الخطأ ليتوجّه إلى مدينة لينغراد (سانت بطرسبرغ حاليّاً بعد أنْ استعادت اسمها التّاريخيّ) ومن المطار يصعد تاكسي يعطيه العنوان المطلوب، الذي يطابق عنوان عروسه، حيث أسماء الشّوارع متشابهة في المدن السّوفيتيّة. حيث لا تخلو مدينة من شارع رئيسي إسمه شارع لينين. يأخذه التّاكسي للعمارة المطلوبة، يلجها وهو يترنّح صاعداً إلى الشّقّة، والأكثر من ذلك يدير المفتاح في فتحة الباب، ليفتح له ويدلف إلى الشّقّة التي كانت خالية من أصحابها لحظتها، لتتفاجأ صاحبتها بعد عودتها بالضّيف الغريب وهو نائم في سريرها!

إلى روسيا الغامضة، المدهشة، المتناقضة هذه ذهبت للدّراسات العليا. أدركني الضّيق في سوريا في السّنوات الأخيرة، وبدت حياتنا رتيبة ومكرّرة

دون أنْ يجد المرء منّا متّسعاً لتطوير مهاراته. كان طموحي في مواصلة دراستي حاضراً في كلّ الوقت، ولكنّ الظّروف كانت تؤجّله إلى أنْ حانت هذه الفرصة. كان السّفر إلى روسيا فرصة ذهبيّة لتعلّم لغة جديدة والاقتراب من ثقافة مختلفة وحضارة أخرى والالتفات نحو الذّات أكثر.

كان عمري يومذاك نحو ثلاثين عاماً وهو ليس العمر المثاليّ تماماً لتعلّم لغة أجنبيّة، ولكنّني استنفرت كلّ طاقاتي وجهودي، تعاطيت مع الأمر بجديّة كبيرة. ذهبت إلى موسكو شتاءً، كانت المدينة باردة، والثّلوج قد غطّت الأرض، ومن غرفة السّكن الدّاخلي في شارع «مكلوخا مكلايا» التّابع لجامعة الصّداقة تبدو الغابة المحاذية مغطّاة بالثّلوج باعثةً على السّحر والفتنة.

أتاحت لي سنوات الإقامة في موسكو فرصاً نادرة لزيارة المسارح والمتاحف ودور العرض الفنيّ، خاصّة وأنّ المدينة عُرفت بثراء وخصوبة حياتها الفنيّة والثّقافيّة، وكنت أتدبّر تذاكر للعروض المسرحيّة وحفلات الأوبرا والباليه، بما في ذلك لتلك الحفلات والعروض التي تُقدّم على مسرح (البولشوي) الشّهير، وفي ذهني تظلّ حاضرة ذكرى عروض الباليه الشّهيرة، ومن بينها «بحيرة البجع»، التي وضع موسيقاها الموسيقيّ العبقريّ (تشايكوفسكيّ)، ومازلت أذكر عرض (تشايكا) المأخوذ من نصّ (تشيخوف)، وبوسعك وأنت تتابع العرض أنْ تتخيّل هذا الكاتب العظيم وهو يتابع من أحد كراسي هذا المسرح الأسطوريّ بروفات عروض مسرحيّاته التي يديرها صديقه (ستانسلافسكيّ).

في السّنة الثّانية من وجودي سألتقي بمدرّسة اللغة الرّوسيّة (نتاليا بيتروفنا) الآتية من مدينة (أوديسّا) الأوكرانيّة في دورة تطوير مهارات التّدريس الرّئيسيّة للأجانب.

كانت جامعة الصّداقة مختبرا لهذا النّوع من المهارات بسبب كثرة وتنوّع الطّلبة الأجانب من البلدان النّامية فيها. في غمرة (البيروسترويكا) وحمى المشاعر الشّوفينيّة المعادية للأجانب والولع بتعلّم اللغة الإنجليزيّة ونمط الحياة الغربيّة، قرأت في صحيفة «أنباء موسكو» -وكانت قد وقعت تماماً تحت سيطرة اللوبي الصّهيونيّ- من يسخر من بطء تعلّم الرّوس للإنجليزيّة، داعياً إياهم للتعلّم من تجربة جامعة الصّداقة التي تجعل من أولئك «العبيد» (في إشارة عنصريّة بغيضة للطّلبة الذين تبعثهم الدّول الأفريقيّة أو حركات التّحرّر الوطنيّ للدّراسة في الجامعات السّوفيتيّة) يتكلّمون الرّوسيّة بطلاقة بعد مرور شهر من وصولهم إلى موسكو.

كانت (نتاليا بيتروفنا) امرأة ثلاثينيّة ذكيّة، كتبت أطروحة دبلومها عن (تشيخوف). لها الفضل الأكبر في أنّها أخذت بيدي إلى عالم هذا المبدع الكبير، واقترحت عليّ البدء بقراءة قصّته: «حكاية رجل مجهول». وأشعر بالامتنان إليها لمساعدتها لي -في حينه- في التّغلّب على صعوبات اللغة الرّوسيّة.

بعد أنْ أنهيت دبلوم الحقوق في جامعة الصّداقة، انتقلت إلى معهد الاستشراق في موسكو، وهو واحد من أعرق المعاهد والمؤسّسات الأكاديميّة في روسيا والاتّحاد السّوفيتيّ السّابق، له تقاليد سابقة للعهد السّوفيتيّ يوم كان القياصرة يتطلّعون نحو المياه الدّافئة، ويُولون الدّراسات الشّرقيّة اهتماماً خاصّاً. في المعهد نخبة من المستشرقين والمستعربين الذين درسوا اللغة والثّقافة العربيّة والحضارة الإسلاميّة، وصفوة ما أصدرته دور النّشر السّوفيتيّة عن الشّرق العربيّ، وكذلك غير العربيّ، وضعه أساتذة في هذا المعهد.

لكنّني أتيته في مرحلة الانحطاط العامّة التي بدأت روسيا والاتّحاد السّوفيتيّ كلّه يواجهها إثر تداعيات البروسترويكا. لقد انهار الوضع

الاقتصاديّ، ولم تعد الدّولة قادرة على سداد الرّواتب والمكافآت للأساتذة، وأمام التّضخم الجنونيّ وانهيار الرّوبل، بات الرّاتب الذي يصرف لهؤلاء الأساتذة الكبار مدعاة الألم. لم يعد للعلم من قيمة. وابتدأ كثير من المتسلّقين يعيدون النّظر في أحكامهم وتقييمهم للوضع.

كتبت أطروحتي عن خصائص التّطوّر السّياسيّ الاجتماعيّ في البحرين بعد الاستقلال، كان ذلك هو الموضوع الذي خلصت إليه بعد مناقشة أوليّة مع مشرفتي العلميّة، حيث قدّمتُ لها خطّتي الأولى بالكتابة عن الموضوع على مستوى دول مجلس التّعاون الخليجيّ، لكنّها قالت إنّ الخطّة طموحة جداً ولا يمكن انجازها في ثلاثة أعوام، والأفضل التّركيز على بلد بعينه من بلدان الخليج، وبما أنّني من البحرين فقد ارتأت أنْ أختار البحرين بالذّات موضوعاً لدراستي.

عكفت على تجميع المادة وقراءة دراسات كثيرة حول جهاز الدولة وتطوّره في البلدان النّامية، والصّراع بين البنى التّقليديّة السّابقة للدّولة وبين الدّولة ذاتها من حيث هي جهاز حديث، وتوقّفت مطوّلا على ما يظهره ممثلو هذه القوى التّقليديّة من مهارة في التّكيّف مع مقتضيات الإدارة الحديثة مع الحفاظ على أشكال الولاءات التّقليديّة، وحماية النّواة المتنفذّة، قبيلة كانت أو طائفة.

أنجزت كتابة الأطروحة في المواعيد المحدّدة، وأجريت لها المناقشة الأوليّة في قسم العلاقات الدّوليّة بالمعهد. كشفت لي تلك المناقشة طبيعة التّجاذبات السّياسيّة والفكريّة في الأوساط الأكاديميّة الرّوسيّة في الوضع المستجدّ. فإذ كان هناك من رأى أنّ الأطروحة مكتوبة بالذّهنية القديمة، ذهنية ما قبل «البيروسترويكا» وُجد من رأى أنّها بحاجة إلى تعميق الأبعاد

الطّبقيّة وتحليل المصالح المتناقضة في المجتمع من منظور ماركسي.

وهناك من شدّد خاصّة على ضرورة إعطاء تحليل أعمق للسّياسة الأمريكيّة في منطقة الخليج وصلة ذلك بمصالح المجمع العسكريّ-الصناعيّ في الولايات المتّحدة (كان هذا غداة حرب تحرير الكويت). في المهلة الفاصلة بين هذه المناقشة وموعد الدّفاع النّهائي عن الأطروحة أخذت بما رأيته مناسباً من ملاحظات وأدخلت بعض التّعديلات على الأطروحة بما ينسجم وقناعاتي.

***

كانت القوّات العراقيّة قد اندفعت نحو الكويت في المغامرة العسكريّة المعروفة. الولايات المتّحدة عملت على استدراج صدّام حسين نحو هذا الفخّ، مستغلّة في ذلك جنون القوّة والتّهوّر لديه، كان يريد تقديم نفسه للأمريكان كقوّة إقليميّة لن تكون مناقضة لمصالحهم. حينها صرّح طارق عزيز، فيما القوّات العراقيّة تطبق على الكويت: ماذا يريد الغرب؟ النفط؟ سنؤمّن له النفط بأسعار أفضل من تلك المتاحة حالياً.

ابتعث (ميخائيل غورباتشيوف) الدّبلوماسيّ والصّحفيّ المخضرم (بريماكوف) إلى العراق في مهمّة لإقناع صدّام حسين بسحب قوّاته من الكويت قبل فوات الأوان. راهن (غورباتشيوف) كثيراً على هذه المبادرة، (بريماكوف) مقبول لدى العراقيين بصورة عامّة، تجمعه إلى ذلك علاقة صداقة مع طارق عزيز ومعرفة كافية بصدّام حسين شخصيّاً، هو الذي مكث في العراق فترة من الزّمن في بدايات حياته المهنية بصفته مراسلاً لجريدة (برافدا).

سمعت (بريماكوف) فيما بعد يروي على التّلفزيون المركزيّ السّوفيتيّ انطباعاته عن مهمّته. تحدّث عن استهجانه لقيام القوّات الأمريكيّة بقصف الجسور في بغداد، وقال إنّه لا ضرورة عسكريّة لهذا العمل، وأنّه من غير الجائز تدمير جسور جميلة عريقة كهذه، ثمّ إنّه وصف دقائق لقائه بصدّام وانطباعاته عن اللقاء. الأمر نفسه شرحه بتفاصيل أكثر في مجموعة حلقات نشرتها (برافدا)، قبل أنْ تطبع في كتاب سرعان ما ترجم إلى العربيّة.

قيل إنّ (بريماكوف) أفهم صدّام أنّ المسألة جديّة وليست مزحة. الأمريكان عازمون وبدون أدنى تردّد على إخراج قوّاته من الكويت بالقوّة وإلحاق أوسع خسائر ممكنة بالعراق، وأنّ الحكمة تقتضي منه الإسراع في مبادرة سحب هذه القوات. وقيل أيضا إن صدّام تظاهر ببعض المرونة وسأل عن الضّمانات بعدم قصف القوّات العراقيّة من قبل الأمريكان ساعة انسحابها. لكنّ التّسويّة لم تتم، فكان أن اندلعت الحرب، التي لم تنته بإخراج القوات العراقيّة من الكويت فحسب، وإنما بفرض الحصار على العراق، تحضيراً للحرب التي شنّت عليه بعد عقد ونيّف.

نشيد سومري مدهش يعود لذلك الزّمان يخاطب مدينة «أور» الفاتنة، في حضارة ما بين النّهرين، بالقول: «أيّتها المدينة! كلّ شيء متوفّر لك/ تغسلك مياه لا تنضب/ أنت منصّة خصب للبلاد.. جبل أخضر/ مدينة قدر مصيرها أنكى/ يا حرم أور، فلترتفع إلى السّماوات».

يقال إنّ عاصفة هوجاء أدّت إلى تواري المدينة تحت الأرض، لكنّها قبل ذلك بقيت مزدهرة طوال قرون، ولم يفلح الأعداء الكُثر في حمل أهلها على مغادرة ذلك المكان العامر. وفي القرن التّاسع عشر بدأ البحث عن آثار المدينة المتوارية، وفي عشرينيّات ذلك القرن أمكن التّعرّف على بقايا مجموعات

القصور الفاخرة والأبراج المدرجة للمعابد والمدافن الملكيّة الخياليّة التي أخذت تظهر تباعاً تحت الرّمال. ومع أنّ كثيراً من هذه الآثار تآكل واندثر وسرق، لكنْ بقي برج شامخ ينتصب كصخرة عملاقة، كان يشكّل القاعدة الضّخمة لمعبد المدينة الرّئيسيّ الذي بني على شرف إله القمر (نانا)، حسب الأسطورة السّومريّة.

كان أساس البرج ينتصب وسط المدينة القديمة، أساسه يغور في أعماق الأرض وقمّته تناطح السّماء وتنعكس في مياه الفرات المنسابة، كانت القمّة تنطق بالحكمة تماماً كما يفعل أبو الهول، ولا تتأثّر بعاديات الزّمن شأنها في ذلك شأن أهرام الفراعنة. ويقال إنّ مجد مدينة (أور) أخذ يخبو لأنّ الأعداء احتلّوا أرضها، ويقال كذلك إنّ آخر المدافعين عنها هوى وهو يقاتل مضرّجاً بدمائه عند أسفل المدينة، ووصف شاعر سومريّ هول ما حدث حينما أباد الأعداء كلّ ما في الجوار، ودمّروا كلّ شيء كسيلٍ جامح. وتساءل الشّاعر بمرارة: «لماذا يا سومر، يطالك هذا الجزاء؟».

في سومر أيضاً كانت: «مستوطنة الليل المقدّسة، أقدس أقداس الأب، الصّخرة المقدّسة، الهيكل المزدهر، المعبد اللازوردي من الرّماد ارتفع كجبل شامخ وفي مكان نظيف».

في سومر -هذه- هتف مفكّر مخاطباً البلاد المدهشة: «أيّتها الأرض العظيمة بين كلّ أراضي الكون، أنت التي يغمرك ضوء لا يخبو، يا من تسنّين القوانين لكلّ الشّعوب من المشرق إلى المغرب».

بعد قرون من ذاك، وليس بعيداً عن سومر سوف تشاد مدينة بغداد لتكون عاصمة الخلافة العباسيّة. يقال إنّ بناءها استغرق أربع سنوات على يد مائة ألف عامل وحرفيّ جمعوا من أنحاء الدولة العربيّة الإسلاميّة.

كانت المدينة مستديرة ولها سور مزدوج من الآجر وخندق عميق وشوارع واسعة من مركزها الأوسط. بعد قرون أيضاً زحف المغول على بغداد في القرن الثّالث عشر فخرّبوا المدينة وحرقوا مكتبتها الشّهيرة وألقوا بمحتوياتها في النّهر.

وبعد قرون أيضاً من هذا كلّه غزت القوات الأمريكيّة - البريطانيّة بغداد، وكما فعل الغزاة السّابقون أظهر الغزاة الجدد استخفافهم بما يمثّله العراق من عمق حضاريّ وثقافيّ وذاكرة حضاريّة وثقافيّة حين غضّوا الطّرف وربّما شجّعوا الرّعاع على هجومهم على المتاحف الوطنيّة التي تضمّ آثاراً تعود لآلاف السّنين وحين سمحوا باستباحة المكتبات العامّة ورمي محتوياتها وبعثرتها وبالهجوم على الجامعات والمراكز العلميّة وتخريب مرافقها ومختبراتها ومكتباتها دون أنْ يحرّك هؤلاء الغزاة ساكناً.

* * *

كان الاتّحاد السّوفيتيّ قد أصبح عمليّا خارج المعادلة. ظهره بات عاريا بعد أنْ تداعت الأنظمة الحليفة في شرق أوروبا واحدة بعد الأخرى وبعد سقوط جدار برلين وإعادة الوحدة الألمانيّة. وفيما كان الاتّحاد السّوفيتيّ يترنّح تحت صرعات الموت، وبعد إنهاء احتلال القوات العراقيّة للكويت أعلن الرّئيس جورج بوش الأب إطلاق النّظام الدّولي الجديد، ممّا عنى عمليّاً نهاية الثّنائيّة القطبيّة لصالح تسييد الهيمنة الأمريكيّة على العالم.

كان الاتّحاد السّوفيتيّ قد نُخر من داخله. في صيف 1991 قام عدد من أبرز قادة الحزب والدّولة بمحاولة لإنقاذ ما لم يعد بالوسع إنقاذه. كان (غورباتشيوف) مع زوجته يقضيان إجازتهما في القرم على البحر الأسود،

حين أعلن غالبيّة أعضاء المكتب السّياسيّ تجريده من كافّة مسؤليّاته وعيّنوا رئيساً مؤقّتا للدّولة، أرادوا بذلك تكرار السّيناريو الذي على أساسه تمّ إقصاء (خروتشوف) من السّلطة في السّتينيّات.

كان خطواتهم عجلى ومرتبكة وغير مدروسة، وسرعان ما استنفرت القوى صاحبة المصلحة في الوضع الجديد قواها بقيادة (يلتسين) رئيس جمهورية روسيا الاتّحاديّة. نزلوا إلى الشّوارع، وفي حركة تمثيليّة صعد (يلتسين) على ظهر دبّابة في وسط موسكو مخاطباً الحشود.

في إحدى حلقات كتاب (عالم تحوّل) للرّئيس الأمريكيّ (جورج بوش) الأب، ذكّرنا (بوش) بحكاية الماريشال السّوفيتيّ (أخروميف). كان هذا الماريشال الذي يعرفه الغرب بوصفه مفاوضاً عنيداً في مباحثات الحدّ من الأسلحة النّوويّة، في عداد الوفد السّوفيتيّ المرافق لـ(ميخائيل غورباتشيوف) في اللقاء الذي جمعه والرئيس (بوش) في هلسنكي عاصمة فنلندا قبيل بدء العمليّات العسكريّة لقوّات التّحالف ضدّ العراق في العام 1991. يشير (بوش) إلى أنّ (أخروميف) جلس بجواره في حفلة الغداء التي أقامها الرّئيس الفنلنديّ على شرف الوفدين الأمريكيّ والسّوفيتيّ، فكان أنْ التفت إليه (بوش) سائلاً إيّاه: كيف تسير أموره؟ كانت الأمور في الاتّحاد السّوفيتيّ يومها على شفا حفرة من الانهيار، وكان النّظام الذي نشأ فيه الماريشال وتربّى وتشرّب مبادئه يتعرّض لهجوم القوى التي أخرجتها (البيروسترويكا) من القمقم، فردّ الماريشال على (بوش) قائلاً: «إنّني مرتبك.. فأنا جنديّ ووطني مؤمن كرّس حياته للاتّحاد السّوفيتيّ والمبادئ التي تعلّمت أنّني أمثّلها، وفجأة يقال لي إنّ كلّ ما كنّا نمثّله ونكافح من أجله هو خطأ». كان الأمر بالنّسبة لـ(آخروميف) أشبه باقتلاع عالمه من جذوره، وتدمير أسسه الأخلاقيّة والقوميّة، فلم يعد يعرف بماذا ينبغي أنْ يؤمن وعن ماذا يجب أنْ يدافع.

ورغم أنّ الأمر كان يمكن أنْ يثير، أو لعلّه أثار فعلاً لدى بوش السّماتة أنْ يرى أحد ممثّلي الفريق الغريم في مثل هذه الحال من الارتباك والضّياع، إلّا أنّه كتب في مذكّراته قائلاً: «إنّها كانت لحظة عويصة»!. فقد تخيّل نفسه أين سيكون لو اكتشف أنّ كلّ شيء أقام عليه حياته منذ كان شابّاً يتبدّد ويوضع موضع هذه المساءلة.

الحكاية لا تنتهي هنا! فبعد أقلّ من عام كان الماريشال (أخروميف) واحداً من المشاركين الرّئيسيّين في محاولة الانقلاب التي جرت ضدّ (غورباتشيوف)، وحين ألقي القبض على قادة محاولة الانقلاب لم يكن (أخروميف) بينهم. لقد انتحر بأنْ أطلق الرّصاص على رأسه تاركاً رسالة مفادها: «لم يعد لحياتي معنى.. إنّ القضيّة التي أؤمن بها ضاعت!».. لم يكن خائفاً من السّجن، فالخائف لا يختار الموت، لم يكن الاتّحاد السّوفيتيّ قد انهار بعد، لكنّ بصيرته قالت له إنّ منطق الأمور يدفع الأمور في ذلك الاتّجاه.

ليس مطلوباً من النّاس أنْ تنتحر حين تشعر أنّ ما آمنت به يتعرّض لنكسة، ولكن حين نرى رأي العين هذه النّماذج من البشر التي غيّرت جلودها بين يوم وليلة، وانتقلت من المركب الغارق إلى المركب الجاري مُبدّلة وجهة الشّراع، لا يسع المرء إلا أن يُكبر في هذا الرّجل صدقه؛ لأنّه كان شريفاً ومتّسقاً مع ذاته ومع ما آمن به.

كان الأمر قد حُسم عمليّا، أُعلن عن فشل محاولة استعادة السّلطة، وعاد (غورباتشيوف) إلى موسكو، لكنّه كان أسيراً لخصمه اللدود (يلتسين). قيل أنّ الأوّل عرض على الثّاني منحه أعلى وسام تقديراً لشجاعته في الدّفاع عن «الشّرعيّة» فرد (يلتسين): لست أنت من يمنحني الأوسمة. وفيما كان (غورباتشيوف) -بعد عودته- يلقي خطاباً أمام مجلس السّوفيت الأعلى، قام

(يلتسين) إلى المنصّة نحوه حاملاً في يده ورقةً، مطالباً إيّاه بقراءة ما فيها، في حركة تعمّدت إلحاق الإهانة والازدراء به، وشاهد الملايين من الرّوس ومن مواطني الجمهوريات السوفيتية الأخرى كلّ ذلك؛ لأنّ التّلفزيون كان يبثّ هذه الجلسة على الهواء مباشرة.

لم يمرّ وقت طويل حين ظهر (غورباتشيوف) في نشرة الأخبار المركزيّة في التّلفزيون يعلن لمواطنيه: «هذه آخر مرّة أخاطبكم بصفتي رئيساً للاتّحاد السّوفيتيّ». الدّولة التي كان يرأسها لم تعد قائمة.

إحدى الصّحف الأجنبيّة سألته ماذا ستعمل غداً وقد كففت عن أنْ تكون رئيساً؟

فأجاب: «سأذهب لمكتبي في الكريملين لأجمع أوراقي وآخذها إلى شقّتي أو إلى بيتي الرّيفيّ».

فعل (غورباتشيوف) ما خطّط له، ذهب للكريملين، لكنّ الحراس -بأوامر من (يلتسين)- منعوه من الدّخول!

* * *

حين انتسبت لمعهد الاستشراق كان اسمه هكذا: «معهد الاستشراق في موسكو التّابع لأكاديميّة العلوم السّوفيتيّة»، وتخرّجت منه بعد ثلاث سنوات بالتّمام والكمال وقد أصبح اسمه: «معهد الاستشراق التّابع لأكاديميّة العلوم الرّوسيّة».

لم يعد هناك ما هو سوفيتيّ في روسيا السّوفيتيّة. أصبحت الأشياء كلّها روسيّة. والإمبراطوريّة التي أنشأها القياصرة وورثها عنهم البلاشفة

وأضافوا إلى قوّتها قوّة، تفكّكت إلى مجموعة جمهوريّات ودول. ولم تسلم حتّى روسيا نفسها من مصير صعب.

يروي رسول حمزتوف في سفره البديع: «بلدي» أنّه في القرن الثّامن عشر اقتيد شامل الزّعيم الدّاغستاني من مسقط رأسه، حيث عبروا به الفيافي والوديان حتّى مثل أمام القيصر في بطرسبرغ، حيث بادره هذا الأخير بالسّؤال: كيف بدت لك الطّريق؟ فردّ شامل: بلاد واسعة.. واسعة جدّاً، فسأله القيصر: لو كنت عرفت أنّ دولتي على هذا القدر من العظمة والجبروت، هل كنت تناصبها العداء طوال هذا الوقت، أم كنت ألقيت السّلاح تعقّلاً وفي الوقت المناسب؟ أجاب شامل: لقد حاربتمونا كلّ هذا الوقت الطّويل، وأنتم تعرفون أنّنا بلد صغير وضعيف.

شامل هو نفسه القائل إنّ روسيا سفينة كبيرة، يمكن لثقب فيها أنْ يغرقها، وبصرف النّظر عن مدى دقّة الوصف، فإنّ غرق روسيا ليس في مصلحة العالم، وكتحصيل حاصل ليس من مصلحتنا نحن العرب.

***

خلّفت موسكو ورائي صبيحة السّابع عشر من ديسمبر 1992. لم يعد السّفر إلى روسيا أو منها محظوراً أو محاطاً بالمخاطر كما كان عليه الحال قبل عام أو عامين. كما أشرت سابقاً قال لي من أعرف من أصدقاء وصديقات: لمَ لا تبقى حتّى الأعياد ورأس السنة؟. لكنّني عقدت العزم على السّفر.

أنا الآن ذاهب إلى البحرين، معي صورة من جواز سفري القديم، ملامح صورتي وأنا صبيّ في مقتبل العمر، شارب خفيف بالكاد يخطّ أعلى شفتيّ اللتين بدتا غليظتين أكثر ممّا هما بالفعل وشعر كثيف لم يتبقَ منه اليوم

إلا أقلّ القليل.

بعد ساعات من الطّيران تخلّلها توقّف قصير في مطار أبوظبي، وصلنا مطار البحرين الدّوليّ. تقدّمت بثقة، أو بما يشبهها، نحو ضابط الجوازات بصورة جواز السّفر. تبسّم الرّجل وهو ينظر لصورة الجواز التي تتصدّرها العبارة التّالية: «حكومة البحرين وتوابعها»، لقد كفّت الدّولة عن إصدار مثل هذا النّوع من الجوازات قبل زمن طويل. فقد أصبحت البحرين دولة مستقلّة، اسمها دولة البحرين، وهو الاسم الذي يعلو جوازات سفر مواطنيها.

طلب منّي بأدب: تفضّل انتظر قليلاً، وهو يشير إلى كرسيّ مجاور، ما هي إلّا هنيهات حتّى أتى أحد رجال الأمن في لباس مدنيّ، سلّم مبتسما هو الآخر قائلاً: مطوّل الغيبات! ولم يكمل بقيّة المثل: راجع بالغنائم، ليأخذني نحو صالة أخرى. وبعد بعض الوقت جرى اقتيادي إلى غرفة صغيرة مجاورة وأحضرت حقيبة سفري إلى حيث كنا، وجرى تفتيش محتوياتها قطعة قطعة من قبل أحد رجال الأمن، فيما كان زميل آخر له، يبدو أنه أرقى رتبة يراقب ذلك، وأنا واقف بجوارهما.

بعد الانتهاء من تفتيش الحقيبة، طلب مني أن أخلع ملابسي أيضاً قطعة بعد الأخرى، وأخذ يفتش جيوبها، ويتحسس بأصابعه ياقة القميص، حتى بقيت في ملابسي الداخلية فقط، وخطر في ذهني ساعتها تساؤل: ماذا يحسب أني سأخفي في ملابسي؟

وبعد أن أمرني بإعادة ارتداء ملابسي أخرجت من الغرفة، إلى الصالة التي كنت فيها قبل التفتيش.

أمضيت بقيّة الليلة في المكان ذاته، داهمني النّعاس فألقيت بنفسي على الكرسيّ الذي أجلس فوقه وجعلت من المعطف الشّتويّ الطّويل الذي كنت

قد غادرت موسكو مرتدياً إيّاه غطاء لي يقيني برد الصّالة المكيّفة. لم أفق إلّا في الصّباح على صوت أحدهم ينادي باسمي.

انتهينا. لقد تقرّر ترتيب أمري. لن يُسمح لي بدخول البحرين، المطلوب ترحيلي إلى جهة أخرى. أحد رجال أمن المطار شرح لي الموضوع بالشّكل التّالي: دخولك البحرين بعد هذه الغيبة الطّويلة غير ممكن، عليك أنْ تعود من حيث أتيت، دع أهلك يتابعون مع «الدّاخلية» أمر عودتك بعفوّ أميريّ. شرحت له أنّ عودتي إلى موسكو مستحيلة عمليّاً. قال ما رأيك تذهب إلى سوريا قلت له هذا غير وارد في ذهني. إذاً، أين تفضّل أن تذهب؟ سألني، قلت له: إلى أيّ دولة خليجيّة؟ سألني: مثلاً؟ قلت له: الكويت مثلاً. صمت برهة ثمّ قال: لماذا لا تذهب إلى دبيّ؟!

* * *

إلى الطّائرة أخذني أحد رجال الأمن. في يده تذكرة السّفر وجواز السّفر الذي جرى استصداره لي بعد أن طلبوا منّي صورا. بحوزتي صورمن تلك التي تعرف بالصّور الفوريّة. لم أكن أشبه نفسي تماماً في تلك الصورة ولكن هذا كان المتاح.

لّما استويت على المقعد أعطاني الرّجل جواز السّفر في يدي. كانت تلك المرّة الأولى منذ سنوات طويلة التي أحمل فيها جواز سفر يؤكّد مواطنتي، بأنّني من رعايا دولة البحرين، في حركة لا إراديّة رفعت الجواز إلى شفتي وقبّلته، تماماً كما نفعل مع صورة الحبيب مثلاً أو مع أحد الكتب المقدّسة.

في دبيّ تقدّمت نحو منصّة الجوازات. الصّالة القديمة للواصلين في المطار في الطّابق السّفلي كانت تطلّ على الشّارع مباشرة لا يفصلها عنه سوى

حاجز من الزّجاج الشّفاف حيث بوسعك رؤية المستقبلين، وبوسعهم رؤيتك. لم تستغرق نظرة موظف الجواز على جواز سفري وختمه له سوى ثوانٍ معدودة، وجدت نفسي بعدها أمام حزام الحقائب. أخذتْ حقائب المسافرين تأتي فيأخذونها متوجّهين إلى نقطة التّفتيش ثمّ إلى خارج المطار، سرعان ما فرغ الحزام من الحقائب وتوقّف عن الدّوران، لكنّ حقيبتي لم تصل، وصلت علبة من الكارتون كان بداخلها (سماور) روسيّ هو عبارة عن تحفة جميلة، تحفة للزّينة أكثر منها للاستخدام.

قرّاء الأدب الكلاسيكيّ الرّوسيّ يعرفون أنّه ما من رواية أو قصّة لكبار الأدباء الرّوس تخلو من ذكر (سماور) الشّاي الذي يتحلّق حوله أفراد العائلة في ليالي بطرسبرغ الباردة.

كنت قد اقتنيت هذا السّماور من أحد محلّات بيع التّحف قبل سفري من موسكو بأسابيع قليلة، ولمّا لم يكن هناك سبيل لوضعه في حقيبة الملابس نظراً لحجمه رغم خفّة وزنه، فأبقيته كما هو عليه في علبة الكرتون التي وضع فيها لحظة شرائه. مَنْ قرّر تأخير وصول حقيبتي إلى دبيّ ارتأى لأمرٍ يخصّه أنْ يرسل كرتون السّماور وحيداً.

دبّ في روحي شعور مغاير منذ لحظة خروجي من المطار، شعور بالسّكينة بعد ساعات التّوتّر الماضية.

اقترح عليّ سائق التّاكسي اسم فندق في ديرة بدبيّ، ليس بعيداً عن الخور وقريباً من الميدان المعروف في الوسط التّجاريّ للمدينة القديمة: ميدان بني ياس (ميدان جمال عبد النّاصر سابقاً). ما أنْ استقررت في الغرفة حتّى طلبت بالهاتف زوجتي التي كانت تظنّ أنّي لم أزل في مطار البحرين.

نزلت الشّارع المحاذي الذي كان مليئاً بالآسيويين، كان اليوم جمعة،

وكان الوقت مساء. من المحلّات على طرفيّ الشّارع شممت روائح البهارات الهنديّة الزّكيّة والليمون المجفّف والرّبيان المجفّف بأحجامه الكبيرة. هاأنذا أخيراً في السّوق الخليجيّ التّقليديّ، انبعثت الذّاكرة القديمة، الذّاكرة السّابقة لمغادرتي البحرين آخر مرّة، وبما في جيبي من مبالغ متواضعة اشتريت قميصاً جديداً وملابس داخليّة، وعدت للفندق، واستسلمت لحمّام ساخن أعاد إليّ شيئاً من النّشاط والحيويّة، ارتديت ملابسي ونزلت الشّارع مجدّداً، ليلفحني نسيم ديسمبر المنعش، رغم تشبّعه بالرّطوبة.

بعد ساعات معدودات وصلت عائلتي إلى الفندق. زوجتي مريم رفقة ولدنا علي وابنتنا وسن اللذين كانا طفلين، علي في حدود السابعة من عمره ووسن لم تبلغ بعد الثالثة من عمرها، ومعهم أيضاً أتى ابن أخي علي. وبعدهم بيوم أتى شقيقه الأكبر حسن رفقة زوجته جهينة.

بعد يومين أو ثلاثة انتقلت من دبيّ إلى الشّارقة، وفي أحد أيامي الأولى اصطحبني خالد فيروز، البحرينيّ المقيم في الإمارات يومها، بجولةٍ في السّيّارة، بدأناها بالمرور بمحاذاة الشّاطئ الجميل الممتدّ بين الشّارقة وعجمان، وما إن أبصرت عيناي امتداد البحر وجماله وزرقة مياهه، حتّى قلت لنفسي: لن أغادر هذا البلد أبداً.

هل يمكن تقسيم المدن إلى مدن رؤوف وأخرى قاسية؟!

هناك مدن تأسرك من أوّل وهلة، حين ينتابك شعور أشبه بالحبّ من أوّل نظرة، وهناك مدن تصدّك منذ البداية، فتشعر فيها بالوحشة والغربة حين تلمس أنّ الرّتابة وتجهّم الوجوه وغلاظة سلوك البشر هو ما يغلب عليها. ويقال إنّ المدن لا تبوح بأسرارها مرّة واحدة، بدليل أنّ المدينة التي قد لا تحبّها من أوّل نظرة قد تفصح لك مع الوقت عن جوانب خفيّة لم تلحظها

في البدء، وهناك مدن قد تبهرك في الانطباع الأوّل، تماماً كامرأة فاتنة، ولكنْ ما إنْ تقترب منها في التّفاصيل حتّى تتيقّن من زيف انطباعك.

ولكنّ المدن أمكنة. والأمكنة هي البشر بالدّرجة الأولى، فقد تشدّك لمدينة ما ذكرى جميلة، مثلاً إنسان عزيز على القلب يقيم فيها، أو ألفة نشأت مع الوقت، ولا سبيل للتّحرّر من هذه الألفة، بدليل أنّ أناساً كثيرين يجرّبون الهجرة من المدن التي ألفوها إلى أماكن أخرى، فلا تنبت لهم جذور ويظلّون مشدودين وجداناً وعاطفة وذكريات لأماكنهم الأولى، رغم أنّ الإنسان هو أكثر المخلوقات قدرة على التّعوّد على المناخات الجديدة التي يجد نفسه مضطراً للعيش فيها.

المدن التي تقع على البحر أو يشطرها نهر جميل أو كبير هي دائماً مدن باعثة على الحنين، والأثر نفسه تتركه الغابات والمسطّحات الخضراء. كان (باشلار) قد عنوّن فصلاً من أحد كتبه بـ«ألفة المتناهي في الكبر»، واستشهد بشاعرٍ يقول: «أعيش في طمأنينة أوراق الشّجر» متوقّفاً عند دلالات الطّمأنينة التي تبعثها الأشجار في النّفس.

شعرت ساعتها أنّني في واحدة من الأماكن الرؤوف التي تأسرك من أوّل وهلة، وبدأت أهيّئ نفسي لإقامة طويلة في الإمارات، فلم يكن هناك ما يبعث على الأمل في قرب العودة إلى البحرين.

التّمرين الأوّل الذي مارسته بعد قليل من الاستقرار هو العودة إلى الكتابة الصّحفية. طرقت أبواب المؤسّسات الصّحفية القائمة بمعونة أصدقائي في الإمارات، ولكنْ لم تكن الأمور مُيسّرة كما يبدو للوهلة الأولى. اتّجهت إلى الكتابة الحرّة، وبعثت لجريدة (الخليج) بعض المقالات التي وجدَت لها مكاناً إمّا في ملحقها الثّقافيّ الذي كان الأستاذ محمد حسن الحربي

يشرف عليه يومها، أو في صفحة الرّأي. وسرعان ما شعرت أنّني استعدت اللياقة الضّروريّة في الكتابة، خاصّة أنّني لم أنشر شيئاً باسمي الصّريح منذ أنْ غادرت البحرين.

بعد نحو عام مرّ في وظائف مؤقّتة أو مهامّ حرّة في التّلفزيون، التحقت موظّفا بدائرة الثّقافة والإعلام في الشّارقة. ولم يقطع إقامتي في هذا البلد الدّافئ الذي منحني الأمان والحبّ والطّمأنينة التي استمرت نحو عشرة أعوام سوى ذوبان جليد الجمود السّياسيّ في البحرين.

يجابه المجتمع الإماراتيّ، كما مجتمعات الخليج الأخرى مهامّ التّحول الثّقافيّ والاجتماعيّ في ظروف شديدة الخصوصيّة، فالثّروة النّفطيّة الكبيرة تؤمّن مستوى من المعيشة عالياً للمواطنين وتسهم في تسييد نمط من السّلوك الاستهلاكيّ القائم في مجتمعات الخليج الأخرى بنسب مختلفة، وللتّركيبة السّكانيّة المعقّدة -التي تتّسم بكون المواطنين الأصليين هم الأقليّة وسط محيط من الجاليات، وهي عبارة عن خليط آسيويّ أوروبيّ عربيّ- دور كبير في ذلك.

الإمارات بالنّسبة لي كانت ورشة عمل ذهنيّة وإبداعيّة. لقد مكنتني من أنْ أخلو إلى نفسي، وأنْ أتفرّغ للعمل الثّقافيّ الذي وجدت فيه حقل اهتمامي الحقيقيّ، وبسرعة اندمجت في النّسيج الثّقافيّ والأدبيّ في البلد، لأكون على تماسّ مباشر مع مفردات الاهتمامات والانشغالات الثّقافيّة للمبدعين الإماراتيّين وشريحة المثقّفين والمبدعين من أفراد الجاليات العربيّة المنوّعة هناك.

كانت (الرّافد) إحدى النّوافذ الرّئيسيّة لهذا الاهتمام. اختارني عبد الرّحمن حسن الشامسي مدير عام دائرة الثّقافة والإعلام حينذاك والمكلّف من قبل الحاكم بإصدار تلك المجلّة لأكون مدير تحريرها، فيما تولّى هو رئاسة

التّحرير في سنوات صدورها الأولى، وينتسب عبدالرحمن إلى الجيل الإماراتيّ الذي فتح عينيه على نشوء الدّولة الاتّحاديّة بأفقها الوحدويّ، وبالآمال الكبرى التي أشاعتها في صفوف أبنائها، خاصّة منهم أولئك الذين تلقّوا تعليمهم في الجامعات العربيّة، وتشرّبوا بالحسّ الوطنيّ والقوميّ.

منحتني (الرّافد) فرصةً كنت أتوق إليها في أنْ أزجّ بنفسي في أتون تجربة ثقافيّة غنيّة تكون على تماسّ مع روافد الثّقافة والإبداع في العالم العربيّ برمّته، وعلى تخوم الأجناس الأدبيّة والفنون المختلفة: النّقد الأدبيّ والفنيّ، المسرح، التّشكيل، السّينما، فضلاً عن إمكانيّة التّعرّف على التّجارب الإبداعيّة الجديدة في الأقطار العربيّة المختلفة.

تطوّرت (الرّافد) من مجلة فصليّة، لتصبح مجلة تصدر مرة كلّ شهرين، وأخيراً تحوّلت إلى مجلّة شهريّة. هيئة التّحرير ضمّت عدداً من الكفاءات، أبرزهم الدّكتور يوسف عيدابي وهو مثقّف سودانيّ يقيم في الإمارات منذ سنوات طويلة، درس السّينما في رومانيا، وعمل بمعية محمد الماغوط في إصدار الملحق الثّقافيّ في جريدة (الخليج) الذي كان في بداياته رافعة حقيقيّة للأدب الجديد والحركة الثّقافيّة في الإمارات، قبل أنْ ينتقل لدائرة الثّقافة والإعلام حاملاً معه رؤية نيّرة للثّقافة، كما كان ضمن هيئة التّحرير في مرحلتها الأولى الفنان والنّاقد التّشكيليّ السّوريّ طلال المعلا.

التّجربة الأخرى المهمّة لي كانت كتابة العمود الصّحفيّ اليوميّ في جريدة الخليج. لم تنقطع كتاباتي الصّحيفة في هذه الجريدة رغم أعبائي الوظيفيّة، لكنّها كانت كتابات متقطّعة أو حتّى متفرقة. في عام 1996 انتظمت في كتابة زاوية أسبوعيّة ثابتة تنشر كلّ سبت على يسار الصّفحة الأخيرة من الجريدة، وهو مكان كان يتناوب على الكتابة فيه سبعة كتّاب وكاتبات من

داخل دولة الإمارات وخارجها. وفي نهاية ذلك العام استدعاني مدير تحرير الجريدة يومها غسان طهبوب ليباغتني بفكرة الكتابة اليوميّة في الجريدة. أرعبني الأمر في حينه، وبدا لي مستحيلاً، لكنّ مدير التّحرير هوّن من ذلك قائلاً إنّ مساحة هذه الزّاوية وآليتها ستختلف عما هو عليه الحال في الزّاوية الأسبوعيّة، لكنّه شدّد على أنّ الأمر سيقتضي التزاماً ومثابرة.

في 1/ 1/ 1996 ابتدأ مشواري مع كتابة الزّاوية الصّحفيّة اليوميّة الذي مازال مستمرّاً حتّى اليوم. لم تبدأ هذه التّجربة بسلاسة. كانت معاناة حقيقيّة احتجت لزمن حتّى أتدرّب على الإمساك بآليّة هذا النّوع من الكتابة: اختيار الفكرة المناسبة، التّعوّد على التّكثيف والإيجاز. انعكست في مقالاتي، خاصّة في المرحلة الأولى أصداء قراءاتي الأدبيّة التي أثرتْ بصيرتي وفتحت عينيّ على آفاق وعوالم جديدة، بت فيها أكثر قرباً من دواخل النّفس الإنسانيّة، ولاحظت أنّ هذا الميل صادف هوىً في نفسي، خاصّة وأنّني وجدت دائماً الوقت الكافي لمثل هذا النّوع من الاهتمامات أمام تقلّص دائرة اهتماماتي الأخرى وانقطاعي عن العمل السّياسيّ اليومي، لكنْ مع متابعتي المثابرة للشّؤون العامّة، والقضايا العربيّة والإنسانيّة الكبرى وحرصي على التّعبير عنها في مقالاتي اليوميّة.

نمط الكتابة التّأمليّة كان يستهوي قاعدة واسعة من القرّاء من الجنسين، وهو ما حفزني في وقت لاحق على اختيار نماذج من هذه المقالات وأصدرتهما في كتابين في آن واحد. الأوّل هو «زهرة النيلوفر» الذي جمعتُ فيه التّأمّلات الوجدانيّة، فيما كرّستُ «خارج السّرب» للأفكار ذات البعد التّنويريّ التّثقيفيّ، واختار واضعو المناهج الدّراسية لطلبة المرحلتين الإعداديّة والثّانويّة في وزارة التّربيّة والتّعليم في دولة الإمارات نماذج من هذه الكتابات لتدريسه للطّلبة والطّالبات.

لتجربة كتابة العمود اليوميّ أكثر من وجه. فهي تجربة ذهنيّة فيها مشقّة لأنّها تجعل الكاتب في حالة توتّر دائم، وكثيراً ما يجد نفسه يضطر لسلق بعض الأفكار قبل أوانها، وقد حاولت أنْ أعبّر عن هذه الفكرة في مقدّمة كتابي «تنُّور الكتابة» الذي جمعت بين دفتيه نماذج من المقالات التي تطرّقت فيها لوجوه أدبيّة وفكريّة مختلفة، حين وجدت أن فكرة «التّنوُرْ» في الكتابة مزدوجة، فأنت من جهة متورّط في صميم الحياة، من حيث هي بؤرة الأحداث والوقائع والتّحوّلات، ممّا يجعل من الكتابة مليئة بالحرقة تجاه الفقدانات العربيّة الكثيرة، لكنّك من جهة أخرى تضطر أحياناً لإخراج خبز الكتابة من هذا التّنور قبل أنْ يستوي تماماً. من المنطقيّ أيضاً أنّ الكتابة اليوميّة في حالة عدم التّفرغ التّام -كما هو حالي- ربّما تأتي على حساب مشاريع متأنّية أكثر في البحث أو العمل الإبداعيّ، ولفت نظري ما أثاره أحد النّقاد المغاربة الذي عرض لكتاباتي، حيث تساءل موجّهاً الحديث اليّ: لماذا لا تكتب الرّواية؟!

ليس بوسعي أنْ أفصل بين تجربة الكتابة اليوميّة وبين معيشتي الطّويلة في دولة الإمارات. الشّارقة بالذّات تعدّ العاصمة الثّقافيّة للإمارات، وهذا كان يقدّم مادّة متنوّعة للكتابة. ها هنا تقام أحداث ثقافيّة كبرى كلّ عام: معرض الكتاب الذي يعدّ واحداً من أعرق وأكبر معارض الكتب في المنطقة وأحسنها تنظيماً. هنا أيضاً تقام أيام الشّارقة المسرحيّة التي أصبحت تنظّم سنويّا بعد أنْ كانت تقام مرّة كلّ سنتين، وهي عبارة عن مهرجان المسرح المحليّ في الدّولة، ومن خلاله ظهرت تجارب مسرحيّة لافتة عكست الرّؤية التي يتفاعل معها المسرحيّ الإماراتيّ مع قضايا مجتمعه المتحوّل، وكشفت عن المؤثّرات المختلفة في تكوين الجيل الجديد من المبدعين الإماراتيين ومدى تفاعلهم مع تجارب أشقّائهم العرب، سواء أكانوا مقيمين في الإمارات أو في

تجاربهم في البلدان العربيّة الأخرى، كما يقام في الشّارقة بينالي الشّارقة الدّولي للفنون التّشكيليّة. وكان لي حظ العمل في اللجان التّحضيريّة لهذه الأنشطة الثّقافيّة والفنيّة الكبرى.

في منتصف عام 2002 حسمتُ أمر عودتي نهائيّاً إلى البحرين. الصّحافي والكاتب الجزائريّ عيّاش يحياوي -المحرّر الثّقافيّ في جريدة (الخليج)- أجرى معي لقاء سألني في نهايته: ألست مرعوباً من أنّك بعد طول تنقّل بين بلدان وُمدن عدّة عائد إلى محطّتك الأخيرة -إلى البحرين- حيث لا ترحال بعد اليوم؟!

كان سؤالاً مباغتاً، مُرعباً بالفعل، لكنّ جوابي عليه كان قاطعاً، أو ما يشبه ذلك قلت: لست واثقاً من أنّ هذه ستكون المحطة الأخيرة. لست واثقاً.

***

حالت تنقّلاتي من بلدٍ إلى آخر دون أنْ أعيش حياة زوجيّة مستقرّة وممتدّة. ولو عددت السنوات التي قضيناها سوية فترة منفاي الطويل فإنها بالكاد تصل خمس سنوات أو ست فقط، نصفها كان في دمشق، والنصف الثاني في الإمارات.

تعرّفت بمريم وهي طالبة صغيرة أنهت الثّانوية وتستعدّ للسّفر للدّراسة الجامعيّة في القاهرة والتي سبقتها أنا إليها قبل سنة. كان ذلك في صيف 1975 أثناء ما كنّا ندعوه العمل الطّلابيّ الصّيفيّ، في القاهرة تطوّرت علاقتنا وقضينا أوقاتاً سعيدة في القاهرة، وغالباً ما كنّا نذهب لمشاهدة الأفلام في السّينما، أو الجلوس في مقاهي وكازينوهات القاهرة ومطاعمها الجميلة المطلّة على نهر النّيل الخلّاب. لكنّني لم أبقَ في القاهرة بعد ذلك سوى شهور

قليلة. وسنلتقي بين الحين والآخر في لقاءات لايامٍ قليلة وفي أماكن مختلفة، حيث ما كنت أنا أقيم، لكن أكثرها كان في بيروت.

تزوّجنا في دمشق في صيف 1982، التي استقريت فيها، بعد أن أصبحت بيروت تحت الاحتلال الإسرائيلي، وباتت إقامتنا فيها متعذرة، بعد أن غادرها أعضاء ومقاتلو التنظيمات الفلسطينية مُكرهين.

بعد الزواج عاشت معي مريم في دمشق سنوات قليلة، وحين أصبحنا في انتظار مولودنا الأوّل عليّ في عام 1986 قلّبنا الموقف من أوجهه المختلفة، وقرّرنا أنّ الأنسب هو أنْ تلده أمّه في البحرين لتسهيل استخراج وثائق الميلاد له، خاصة وأن جدة مريم لأبيها المرحومة ألحت عليها أن تكون ولادتها لطفلها في البحرين، وما قدّرنا أنّه سيستغرق شهوراً قليلة امتدّ إلى أربع سنوات كاملة. منذ لحظة وصول مريم المطار سُحب منها جواز سفرها، ولم تفلح كلّ المراجعات والاتّصالات في إعادته إليها. ولد علي وترعرع ونما بعيداً عنّي، كانت مريم تبعث لي صوراً له أو أشرطة فيديو، من خلالها كنت أتابع مراحل نموّه المختلفة.

في صيف عام 1990 وقد صرت في موسكو، أُعيد لمريم جواز سفرها، وصار بوسعها أنْ تستصدر جواز سفر لعليّ. رتّبنا أمر لقائنا في جزيرة قبرص. سافرت مريم بمعيّة عليّ إلى هناك، وأتيتهما من موسكو. في مطار لارنكا كانوا في استقبالي مع الصّديق بدر عبد الملك الذي التقط صورة لقائي الأوّل بابني. كان عليّ في عمر حرجة، لم يكن في عامه الأول أو شهوره الأولى، وإنّما كان قد بلغ أربع سنوات كاملة، وكان أمر علاقته معي صعباً في البداية. لم يسبق له أنْ رآني ولم تُشكّل حكايات أمه عنّي له ما يُعوّض بعدي عنه، وسنحتاج سويّة -أنا وهو- لبعض الوقت حتّى نستطيع الاقتراب من العلاقة المألوفة بين ابن وأبيه، وأب وابنه.

قضينا سويّة نحو شهرين في قبرص... على مقربة من المكان الذي سكنّا فيه في لارنكا كانت هناك شجرة عالية معمّرة ممتدّة الأطراف والأغصان. ووسط فضاء مفتوح عار من الخضرة كانت هذه الشّجرة وحيدة وتحتها ظلال وارفة. أصبحت الشّجرة محطّ تأمّل عليّ، كلّما مررنا بها، وهو أمر نفعله عدّة مرّات في اليوم الواحد، كان في كلّ مرّة يطرح الأسئلة حولها: مَنْ زرعها أوّل مرة؟ لماذا هي وحيدة ولا توجد معها أشجار أخرى، كم عمرها؟ ولماذا هي كبيرة بهذه الدّرجة؟ وهل تموت الشّجرة؟ وهل للشّجرة أبناء صغار؟

هذا الطّفل الأميل إلى الانعزال والتّأمّل، سيُظهر بعد أنْ يكبر شغفاً كبيراً بالقراءة والاطّلاع، وبعد حين شغفاً مشابهاً نحو عالم السّينما، سيجعله يُصدر كتابه الأول وهو في العشرين من عمره متضمّناً عروضاً نقديةً لافتةً لأفلام مهمّة.

بعد تسعة شهور منْ لقائنا في قبرص، سنُرزق بابنتنا وسن التي غدت صبيّة جميلة وذكيّة وخفيفة الظّل، هي اليوم في السّابعة عشرة من عمرها، ورغم أنّني عشت عن قرب سنوات طفولتها الأولى، إلا أنّها -هي الأخرى- عانت من فترات التّقطّع في علاقتنا الأسريّة بسبب وجودي بعيداً، فمع أن شمل العائلة التئم في سنوات إقامتي الأولى في الإمارات، حيث أخذت مريم إجازة مرافقة زوج، وأقامت مع علي ووسن معي، لكن هذا النوع من الإجازة محدد المدة بعامين فقط، جرى تمديدها بعد مخاطبة وزارة التربية والتعليم التي كانت تعمل معلمة في إحدى مدارسها لسنة ثالثة، لكن الوزارة لم توافق على تمديدها أكثر في السنة التالية، وخيّرتها بين العودة إلى العمل أو تقديم استقالتها، ما جعل العائلة تعود إلى البحرين، وصرنا نلتقي في الإجازات في الإمارات.

لقد دفعت زوجتي وعائلتي الصغيرة أيضاً ثمن هذا المسار المعقد لحياتي

الذي فرضته الظروف المتقلبة للمنفى الطويل الذي توزع على المدن، والتي تركت آثارها علينا جميعاً، ولم نعرف بعض الاستقرار إلا بعودتي إلى البحرين.

حين أعود اليوم إلى البومات الصّور القديمة التي جمعتنا في أمكنة وأزمنة مختلفة تنتابني مشاعر فيّاضة. كلّما قدمت الصّورة، ونأت اللحظة التي صُوّرت فيها بعيداً، ازداد الفضول في أنفسنا لرؤية ما الذي خلّفه الزّمن على أجسادنا وأرواحنا من ندوب.

إنّ الصورة التي تعود لعشر سنوات ماضية أو عشرين سنة يمكن أنْ تثير في النّفس ذلك الشّلال من الأسئلة والتّداعيات عن أين كنّا وأين أصبحنا؟... أذكر صديقاً قديماً لفت نظري مرّة إلى ملاحظة أظنّها دقيقة تماماً، فحواها أنّ أيّ إنسان حين يُحدّق في صورة جماعيّة تجمعه وآخرين فإنّ عينه أول ما تقع إنّما تقع على صورته هو بالذّات.

لدى الناس فضول كبير لرؤية مرآة وجوههم، لرؤية ذواتهم منعكسة على مرآة أو مطبوعة على ورق مقوّى هو الذي نسمّيه الصّورة. وإذْ نعود لصورنا القديمة فأوّل ما نفعله هو التّحديق في أنفسنا التي كانت، في صورتنا. حينها تتداعى الذكريات والأفكار، ها نحن في وضع يمكّننا من ملاحظة ما الذي فعلته السنون بنا، ما الذي غيّرته من الملامح وخلّفته في الرّوح؟ ثمّ تأخذ العينان في التّنقّل بين من هم معنا في الصّورة، وهنا أيضاً ينشأ السّؤال عن المصائر التي أحاقت بهؤلاء.

أكثر الصّور مدعاة للفضول هي صور أطفالنا. حين تفاجأ بأنّ قامة ابنك اليوم هي في مثل قامتك وربّما أطول فإنّ صورته وهو في المهد، أو وهو يلهو بألعابه في سنوات طفولته الأولى، أو صورته مع زملائه وزميلاته في سنة الرّوضة الأولى هي ما ينبئنا -ببلاغة- كم كبرنا!.

يا الله! أيعقل أنّ ذلك كان منذ زمن بعيد، وأنّ هذا الزّمن مرّ بالجوار دون أنْ ننتبه، وأنّ هؤلاء الذين كانوا قبل ومضة عين أطفالاً في المهد، أو أطفالاً يلهون بألعابهم مع أقرانهم قد كبروا حتّى باتوا يضاهوننا في القامة ويحرجوننا بالأسئلة الصّعبة التي لا تستطيع أنْ تجيب عليها، ليس لأنّنا لا نريد وإنّما لأنّنا ببساطة شديدة لا نعرف.

إذا كانت صورة الأطفال -أطفالنا تحديداً- هي مدعاة الفضول، فإنّ صورة الحبيب أو الحبيبة هي الأكثر مدعاة للحيرة والتّأمل. إنّ صورته، أو صورتها، تستحثّك على التّحديق، على التّأمّل في الملامح وفي التّعابير وفي تفاصيل الوجه.

لا أعرف مَنْ القائل «إنّ وجوهنا وحدها تشبهنا، وحدها تفضحنا»، الوجه هو المدخل الأثير للنّفس، للرّوح. لذلك فإنّنا إزاء صورة الحبيب لا نملك سوى الاستغراق في ملامح وجهه، شيء أشبه بالاستغراق التّأمليّ الصّوفيّ الذي يأخذك نحو البعيد. إنّ في نظرة الحبيب -حتّى لو كانت في الصّورة- شيئاً خاصّاً لا يلحظه سوانا، في عينيه كلام نقرؤه وحدنا، في ابتسامته وديان من التّعابير التي تستحضرها المخيلة وتركض فيها الرّوح. صورة الحبيب هي طيفه، هي توقيعه الذي لا يُمحى من النّفس. الصّور أزمنة اخترعناها كخديعة ذكيّة كي نوهم أنفسنا بأنّنا أخذنا من اللحظة الهاربة ملمحاً نبقيه زوّادة للقادم.

***

المصائر الصّعبة للبشر تحمل على التّفكير في الوجه المعقّد للمشاعر الإنسانية، بما فيها تلك المتّصلة بعاطفة الحب.

في مكانٍ ما يقول (أوسكار وايلد) ما معناه: «ثمة مصيبتان، الأولى هي ألّا نحصل على الأشياء التي نريدها، والثّانية أنْ نحصل على هذه الأشياء»..! والإنسان -بين أشياء كثيرة أخرى- هو مجموعة من الرّغبات والآمال والأمنيات والمشاريع المؤجّلة، دائماً ثمّة أمور نريدها وأشياء نشتهي امتلاكها، وحياتنا ليست إلا مسعى دائم لتحقيق هذه الرّغبات التي غالباً ما تتناسل عن رغبات أخرى، ولأنّ «ليس كلّ ما يتمنّى المرء يدركه» فإنّ معاناة حقيقيّة تنشأ عن عجزنا في تحقيق كلّ ما نريد، والظّفر بكلّ تلك الرّغبات التي تسكننا.

ثمّة أمر مستحيل دائماً، هو نفسه النّاجم عن تلك المسافة الأبديّة بين الأمنية والواقع، وما إنْ تتحقّق أمنية ما من أمنياتنا حتّى تفضي مكانها لأمنيات أخرى وهكذا دواليك، لذا فإنّ (أوسكار وايلد) محقّ تماماً في إشارته إلى المصيبة الأولى. بيد أنّه محقّ أيضاً في إشارته للمصيبة الثّانية النّاشئة عن حصولنا على الأشياء التي نريدها؛ لأنّ قيمة الشّيء المشتهي تتناقص، أو تفقد الكثير ما إنْ يصبح في متناول اليد، وهذه ليست خطيئة حين يتّصل الأمر بالرّغبات النّبيلة التي بها تسمو النّفس والرّوح، وهي من بابٍ أولى ليست خطيئة حين يتّصل الأمر بمشاعر البشر وعواطفهم؛ لأنّ ثمّة منطقة في دواخلنا تبقى في حالة توقٍ دائم، رغبة في الارتواء النّفسيّ الذي وإنْ تحقّق في لحظة، فإنّما ليولّد حالات توق لا يعرف التّوقّف لتكرار هذا الارتواء الجميل.

وضع جلال صادق العظم كتاباً صدر في السّبعينيّات عنوانه «الحبّ والحبّ العذريّ» حلّل فيه نماذج من قصص الحبّ المعروفة في التّراث العربيّ: قيس وليلى، جميل وبثينة وغيرها تحليلاً نفسيّاً عميقاً ليؤكّد خلاصة مفادها أنّ الحبّ العظيم قائم على الاستحالة، وأنّ طريق الحبّ محكومٌ عليه سلفاً بألّا ينتهي النّهاية التّقليديّة. إنّه حبّ في حالة توهّج دائم يكتسبها من المسافة بين

المحبين، من استحالة الظّفر النّهائيّ من أحدهما بالآخر، ولعلّ هذا ما يفسّر تلك النّهايات التّراجيديّة لمعظم هذا النّوع من القصص - الأساطير.

حصولنا على الشّيء الذي نريده مصيبة، برأي (أوسكار وايلد)؛ لأنّ الهالة التي كنّا نحيطها به يوم كان مجرّد أمنية أو رغبة تسقط. يصبح هذا الشّيء عادياً ويدخل في اليوميّ والاعتياديّ والمألوف، ولهذا السبب تحديداً ذهب المتصوّفة إلى القول «بأنّ شدّة القرب حجاب»؛ لأنّك إزاء القريب من الأشخاص والأشياء ترى كلّ شيء عادياً. الدّهشة بطبيعتها سريعة، أشبه بومضة برق، سرعان ما تتلاشى لصالح النظرة «الواقعيّة» التي تتعاطى مع الأمور بعقلانيّة ورزانة ورصانة تبدو في حالات كثيرة بغيضة وقاتلة. الشّيء عندما يكون مجرد أمنية يبدو مثيراً للفضول والدّهشة لأنّنا لا نملكه، لأنّنا نريده، وإزاء ما نملك ليس ثمّة فضول، لأنّنا نعرف عنه كلّ شيء.

تحمل العاطفة -في داخلها- النّقائض. يمكن لها أنْ تبلغ أقصى درجات التّوهج، لكنّها عُرضة للعطب؛ لأنّ المرء عرضة لتحوّلات كثيرة في حياته. هل حدث أنْ عدت لكتاب قرأته منذ سنوات، فلم تجد فيه الأشياء أو الأفكار التي أثارت لديك كبير اهتمام يوم قرأته أوّل مرّة؟ أو أنْ استمعت -بعد سنوات- إلى أغنية فلم تجد فيها المتعة التي كانت تبعثها في نفسك؟ أو هل حدث أنْ عدت إلى مكان، إلى مدينة مثلاً رأيتها في سنوات الصّبا، فلم تجد فيها الألفة أو الحميميّة التي لمستها أوّل مرّة.

أكثر من ذلك، هل حدث أنْ التقيت بشخص كنت تعرفه حقّ المعرفة، وكان بينك وبينه الكثير من الودّ والأفكار والآراء المشتركة. لكنّك وجدته بعد انقضاء فترة قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة أنّك إزاء شخص آخر تماماً غير ذلك الذي عرفته وربّما تكون قد أحببته أيضاً؟

من ذا الذي تغيّر، أنت أم الأشياء أو الأشخاص الذين تلتقيهم أو تراهم بعد طول غياب؟ هل حقّاً كان الكتاب أكثر متعة والأغنية أكثر شدواً والمكان السّابق الذي ألفته أكثر ألفة والصّديق القديم، أو الحبيب، أكثر قرباً من النّفس وأكثر دفئاً، أم أنّ كلّ شيء قد تغيّر وتبدّل فلم تعد تجد المتع السّابقة أو تحياها أو تشعر بها؟!

الأشياء والأماكن والأشخاص الذين كنت تعرفهم هُمْ همْ، مازالوا أنفسهم، وأنّ التّغيّرات العميقة إنّما طرأت عليك أنت بالذّات، فلعلّك أصبحت أكثر نضجاً ومعرفة ووعياً بحيث إنّ ما كان يُبهرك في السّابق لم يعد كذلك، فصرت تتطلّع إلى أشياء أكثر إبهاراً وإثارة للدّهشة وإلى أشخاص تظنّهم أكثر قرباً إلى روحك؟

إنّنا أكثر قدرة على مراقبة ما نحن فيه من حال؛ لأنّ هذا الحال هو ما يحدّد نظرتنا للأشياء وللأشخاص. حتّى الطّريق اليوميّ الذي تقطعه كلّ يوم من بيتك إلى عملك أو بالعكس، رغم أنّه لا يتغيّر، وأنّه ثابت بمعالمه الرّئيسيّة، فإنّك قد تلاحظ ذات صباح جميل صحوتَ فيه بمزاجٍ رائق أنّ الشّارع أجمل من المعتاد، وقد تلتفت إلى شجرة فيه، كانت موجودة دائماً، لكنّك لم تلحظها إلّا في ذلك اليوم الجميل.. وعلى العكس قد يبدو لك الشّارع متجهّما؛ لأنّ عيونك تبالغ في رؤية الأمور بمنظور سوداويّ انعكاساً لمزاجك السّيئ ذلك اليوم.

العالم الرّوحيّ للإنسان وإنْ بدا صغيراً، فإنّه أشبه بقارّة كاملة، فيه كلّ التّبدّلات والتّحوّلات والنّقلات من حالٍ إلى حال، وإذْ نكبر تكبر معنا رؤانا وتنضج طريقة تعبيرنا عن عواطفنا ومشاعرنا، وشكل تعاطينا مع الأشياء.

في فقرة تحت عنوان «يجب تعلّم الحبّ» للفيلسوف الألمانيّ (نيتشه)

يشبّه بها الحبّ بالموسيقى: «علينا أنْ نتعوّد في البدء أنْ نسمع مجازاً، لحناً نميّزه بالسّمع، وأنْ نفرزه وأنْ نعزله، وأنْ نحدّد بصفته حياداً لذاته، ثمّ علينا في ما بعد أنْ نقوم عن طيب خاطر بالجهد لتحمّله بالرّغم من غرابته، وأنْ نستخدم الصّبر لنقبل هيئته وتعبيره الجسمانيّ والشّفقة لنسامح فرادته، وتأتي أخيراً اللحظة التي نكون فيها قد اعتدنا عليه، والتي ننتظره فيها والتي نشعر فيها أنّه ينقصنا إذا غاب عنّا، مذ ذاك الحين يستمرّ في ممارسة قهره وسحره علينا ولا يتوقّف إلّا إذا أصبحنا من عشّاقه المتواضعين، من مخلصيه المسلوبين الذين لا يطلبون من العالم شيئاً سواه. هو أيضاً ودائماً هو».

هذه الطّريقة تعلّمنا أنْ نحبّ كلّ ما نحبّه، إنّ إرادتنا الطّيبة، صبرنا، عدالتنا، لطفنا مع الأشياء الجديدة علينا تنتهي بأنْ ترجع لنا؛ لأنّ الغرابة تخلع شيئاً فشيئاً سترها لنا وتظهر لعيوننا جمالها الذي لا يوصف. الحبّ أيضاً يجب أنْ يلقن.

يعتقد (نيتشه) أنّ كلمة الحبّ تدلّ بالواقع على شيئين مختلفين بالنّسبة للرّجل وبالنّسبة للمرأة، وبرأيه أنّ من شروط الحبّ عند الجنسين ألّا يفترض الواحد الشّعور عينه عند الآخر، ألّا يفترض نفس فكرة «الحب» الخاصّة به، إن ما تفهمه المرأة بالحبّ أمر واضح بما فيه الكفاية. إنّه ليس مجرّد التّفاني، إنّه هبة كليّة للجسد والرّوح من دون أيّ شرط، دون أخذ أيّ شيء آخر بعين الاعتبار، فهي تخاف وتحمرّ خجلاً لفكرة التّخلّي بشرط، لتخلٍ مرتبط بشروط، إنّ غياب الشّروط هو ما يجعل من حبّها الإيمان الوحيد الذي تملكه.

أما الرجل فإذا أحبّ المرأة، فإنّ هذا هو الحبّ الذي يريده منها، وبكلمات (نيتشه) نفسه: «إنّ رجلاً يحبّ كالمرأة يصير مِنْ هنا بالذّات عبداً، بينما المرأة إذا

أحبّت كامرأة فإنّها تصير بذلك امرأة أشدّ كمالاً». تريد المرأة أنْ تُؤخذ، تريد أنْ تذوب في فكرة الملكيّة لأنّها تفترض أنّ الرّجل يأخذ، إنّه لا يعطي نفسه، ولكنّه يريد على العكس من ذلك أنْ يغني أناه بالحب ويتكاثر بالقوّة، إنّه يفهم الحبّ على أساس أنّ المرأة تمنح نفسها وهو -بصفته رجلاً- يزداد بها.

يعتبر (نيتشه) أنّ الإخلاص جزء من الحب الأنثويّ، ينتج عن تعريف الحبّ نفسه، ويمكن أنْ يولد بسهولة عند الرّجل على إثر الحبّ كنوع من الاعتراف بالجميل أو من فطرة ذوقه وكنوع من التّلاؤم الانتقائيّ الذي قد لا ينتمي إلى ماهيّة الحبّ، ويمكن للشّاكيات من طغيان النّظرة الذّكوريّة عند الرّجل أنْ يجدن في الكلام التّالي لـ(نيتشه) ما يروق لهنّ: «حبّ الرّجل هو رغبة بالامتلاك وليس تخليّاً أو تنازلاً. ونادراً ما يعترف الرّجل وبشكل متأخّر بهذه الملكيّة، ذلك بأنّ تعطّشه الدّقيق والأشدّ شكّاً في التّملّك هو الذي يجعل حبّه مستمرّاً، ويمكن له أنْ يستمرّ حتّى بعد تخلّي المرأة المكتمل، فالرّجل لا يقبل بسهولة أنّه لم يبق للمرأة شيء تتخلّى عنه».

منذ سنوات مضت كنت في زاوية مقهى أحد الفنادق بباريس، وفي الزّاوية المقابلة تماماً رجل وامرأة وجهاً لوجه على الطّاولة. الرّجل أقرب إلى الشّيخوخة منه إلى الكهولة، أما المرأة فقد بدت أصغر سنّاً منه تماماً كما يقتضي الأمر في غالب الحالات. في البدء كنت مشغولاً بتناول غدائي ولم أتنبّه إلّا بعد حين إلى أنّ صوت الرّجل كان عالياً، أما صوت المرأة، وهي تقاطعه بين الحين والآخر أو تردّ عليه -أو هكذا تراءى لي- فكان أميل إلى الخفوت.

حين تجهل اللغة، عليك أنْ تخمّن فقط عمّ يدور الحديث. لقد قرأت وسمعت أنّ اللغة الفرنسيّة من أرقّ اللغات في العالم، إنّها لغة للحبّ والشّعر، ولكنّ صوت الرّجل مع ذلك بدا عالياً، يبدو أنّه حتّى بالفرنسيّة

يمكن أنْ يكون الصّوت عالياً، وهناك كما هنا يبدو صوت الرّجال أعلى جرساً من صوت النّساء.

«من راقب النّاس مات همّاً»، ولكنّني لم أكنْ أتقصّد المراقبة، إنّ كون الرّجل والمرأة في الزّاوية المقابلة لك تماماً يحملك حملاً على أنْ ترى أو تسمع، لم أفهم ماذا يقولان، لكنْ فيما الرّجل في غمرة اندفاعه بالحديث بصوت عالٍ مدّت المرأة إليه يدها. لقد تركت يدها «لتنام كالعصفور بين يديه»، أمسك الرّجل بيد المرأة وقبّلها، تماماً كما يفعل رجال تلك البلدان مع أيادي النّساء. اختلط عليّ الأمر إذا كانت الأمور بكلّ هذه الحميميّة فلم الصّوت العالي إذن في الحديث؟!

لم يطل الرّجل في إمساكه بيد المرأة، سرعان ما حرّر يده من يدها وعاد إلى كامل الاسترخاء في كرسيّه. برهة من الصّمت ثمّ كلمات أخرى، وبصوت عالٍ. ماذا تراه يقول: هل يعاتب المرأة؟ هل يقرّعها بكلامٍ جارح؟ لماذا حرّر يده من يدها وعاد بظهره إلى ظهر الكرسيّ؟! وفعل ذلك في الوقت الذي راحت الدّموع تنهمر على خدي المرأة.

هل للدّموع لغة.. يبدو أنّ الدّموع هي في الأصل لغة، وإلّا لما كانوا تحدّثوا عن دموع للحزن وأخرى للفرح. ولكنْ فيما دموع المرأة تنهمر كان الرّجل متماسكاً وشادّاً بظهره على الكرسيّ، كدتُ أقول يا لقسوة الرجال!، لولا أنّه ما إنْ نطق بكلماته التّالية بعد بكاء المرأة حتّى بدا صوته متهدّجاً وظننت، أو تيقّنت، من أنّه هو الآخر كان يغالب دموعه التي احتقنت بها مقلتاه.

الرّجل والمرأة اللذان لم يكترثا بوجودي أصلاً، وتصرّفا كما لو أنّني لست موجوداً، ربّما لأنّهما خمّنا أنّني لا أعرف اللغة التي يتحدثان أو يتعاتبان، جمعا أغراضهما ودفعا للجرسون الفاتورة وابتسما له بكلّ رفق وأدب، وانصرفا تاركين وراءهما المقعد مليئاً بالكلام.

يحدث أنْ ينشأ تجاور شديد بين الفكرة ونقيضها، يُذكّر بالخيط الرفيع الذي «يفصل» بينهما ولكنّه لشدة ما هو رفيع لا يكاد يُرى بالعين المجرّدة، ويظهر ذلك بشكلٍ أكثر وضوحاً في النّفس البشريّة التي تبدو أشدّ تعقيداً من النّسيج الاجتماعيّ، ولكنّ الفارق المهمّ في حال النّفس البشريّة هو أنّ الإنسان يبدو -إلى حدود ما- سيّد نفسه حتّى لو لم يدرك هذا التّداخل الشّديد بين المشاعر والمفاهيم المتناقضة التي تتعايش في ذهنه، أو في عقله الباطن بشكلٍ أخصّ.

ومن أمثلة ذلك صعوبة إقامة الدّليل أو البرهان على أنّ ما نعدّه حبّاً لشخصٍ ما هو في الحقيقة مجرّد مشاعر صادقة مجرّدة خالية من تلك النّزعة القويّة الرّاسخة في النّفس البشريّة بالرّغبة في تملّك هذا الشّخص والاستحواذ عليه. نحن في التّحليل الأخير غير قادرين على تبيّن ذلك الخيط الرّفيع بين الأنانيّة وحبّ التّملك كقيمة سلبيّة وبين العاطفة الصّادقة كقيمة إيجابيّة، رغم أنّنا نعلم أنّ هذه الأخيرة تتطلّب القدرة على التّضحية، من حيث هي قرين للخسارة أو حتّى الفقدان، ولكنّ الملكات الإنسانيّة الإيجابيّة بما فيها تلك المستندة على مخزون العقل الباطن تتطلّب من أجل ترشيدها وتنقيتها ممّا هو راسخ فيها من شوائب وعُقد تدريباً طويلاً تصقله الخبرة ونضج التّجربة.

تصوّر نفسك وقد جمعتك المصادفة مع شخص لا تعرفه يجلس بجوارك في مكانٍ عام، فشعرت بأنّ ثمّة شيئاً ما يثير فضولك في هذا الشّخص، ولكنّك لياقةً لا تستطيع أنْ تحدّق في وجهه أو تطيل النّظر إليه، مُكثراً من الالتفاف إلى الجهة التي يجلس فيها أو يقف؛ لأنّ ذلك قد يُفسّر على أنّه نوع من التّطفّل، ولكنّك بين الحين والآخر لا تملك إلّا أنْ تراوغ بعينيك نحوه، منتظراً لحظات غفلته، لعلّك تبصر فيه شيئاً يُشبع فضولك

في حركة أشبه بفعل التّلصّص، وقد تنشأ لديك رغبة آسرة لا تقاوم في أنْ تتحدّث إلى هذا الشّخص أو الاقتراب منه، لكنّ المناسبة التي جمعتك وإياه سرعان ما تنفضّ ويذهب هو إلى حال سبيله قبل أنْ تتمكّن من مبادرته بكلمة أو سؤال أو لفتة.

يُذكّر ذلك بمقال لـ(غابرييل غارثيا ماركيز) عن صدفة جمعته مرّة في طائرة تقطع رحلة بين نيويورك وباريس مع شابّة في أوائل العشرينيّات من عمرها، صدف أنْ جلستْ على المقعد المجاور له، فكان أنْ تهيّأ لحوارٍ ممتع مع فتاة جميلة على علوّ عشرين ألف قدم فوق المحيط الأطلسيّ ولمدّة خمس ساعات هي زمن الرّحلة، ولكنْ لدهشته أنّ الفتاة وضعت أغراضها بعناية دون أنْ تلتفت إليه أو تتحدّث، وأخرجت من حقيبتها قرصين ابتلعتهما بسرعة، ووضعت الوسادة في فجوة عند نافذة الطّائرة وتدثّرت بالغطاء قبل أنْ ترجو من المضيفة عدم ايقاظها مهما كان الأمر، واستغرقت على الفور في نومٍ عميق طوال ساعات الرّحلة، مخيّبة آمال الكاتب، كأنّها بذلك تجيب عن السؤال الذي خطر على باله عندما رآها أوّل مرّة: «هذا التّجاور اللامتوقّع إلى أي منّا سيحمل التّعاسة»؟!.. رغم أنّه عوّض عن الحوار بالتأمّل فيها والتّحديق في وجهها طوال الوقت مطمئناً إلى أنّها لا تراه.

مرّة في رحلة نهريّة في بلد آسيويّ، ومنذ الهنيهات الأولى للرّحلة استوقفني وجه امرأة. شيء آسر في ذلك الوجه لفت نظري. لم تكن المرأة آبهة بما يدور، ولا تدري أصلاً إنْ كانت موضع اهتمام خفيّ من رجل راح يسترق النّظرات إليها متحيّناً اللحظات التي تكون هي فيها شاردة أو ساهمة في تفكير عميق، متحاشياً أنْ تقع عيناه على عينيها.

لم أكن راغباً -أصلاً- أنْ تلاحظ أنّني معنيّ بالنّظر إليها، أو أنّ ثمّة أمراً

آسراً في وجهها يشدّني، فما أنْ تلتفت إلى جهتي بمحضّ المصادفة الصّرف أو الحركة العفويّة حتّى أسارع إلى إبعاد عينيّ عن وجهها والتّظاهر بالتّحديق في حركة النّهر من حولي أو بالنّظر إلى جريدة بين يديّ. بيني وبين نفسي كنت منشغلاً بالتّفكير في سرّ انشدادي إلى وجهها، ولم أكنْ راغباً في لفت نظرها إليّ، ولا التّقدم نحوها لسؤالها عن اسمها مثلاً أو من أيّ بلد أتت.

لم تكن الوحيدة من النّساء في المركب وليست الأجمل، وكانت هادئة في ركنها تفكّر في أمرٍ ما أو في أمورٍ عدّة دفعة واحدة، أو أنّها ببساطة لا تفكّر في شيء، تكتفي بأنْ تترك وجهها للشّمس وهواء النّهر، وحين اشتدّت الشّمس وضعت على عينيها نظّارة شمسيّة سوداء. لم تغيّر النّظارة شيئاً من الأمر، لم أعد أرى عينيها اللتين توارتا خلف الزّجاج الدّاكن للنّظارتين، لكنّ سحر الوجه ظلّ يشدّني، لمْ أقو على تنفيذ رغبتي في أنْ أنصرف إلى أمرٍ آخر أو أفكّر في أمر آخر، وأُمتع ناظريّ بالمشاهد الخلّابة على ضفتيْ النّهر. مرّت ساعات، المركب يمخر عباب البحر، وركّاب النّهر في أمزجة مختلفة، بعضهم أخذه المرح، وبعضهم راح يتأمّل فيما حوله بهدوء، وراح آخرون يتجاذبون الحديث أو يتبادلون الطّرائف والنّكت.

مضى الظّهر وأخذت الشّمس في الانكسار التّدريجيّ، بدت الشّمس هادئة وحنوناً وهي تحثّ الخطى نحو مغربها، ولم يبق من الرّحلة إلا زمن قليل. فجأة -ومن دون مقدّمات- لمعت في ذهني الفكرة الومضة، لو أنّني تمتّعت بقدر من الجنون لهتفت: «لقد وجدتها! لقد وجدت السّبب»: ليست هذه المرأة بالذّات هي مَنْ شدّتني. لقد أسرتني منذ الهنيهات الأولى؛ لأنّ ملامح وجهها تحمل ملامح وجه امرأة أخرى مستقرّة في الذّاكرة. ولم أستطع أنْ أواري خجلي من نفسي لكوني احتجت كلّ هذه السّاعات لأعرف السّبب.

فكرة التّجاور هذه هي أشمل وأوسع مدى من مثل هذه التّجاورات العابرة أو السّريعة أو الخاطفة؛ لأنّنا في الحقيقة نقع كلّ يوم داخل منطقة التّجاور هذه، في البيت وفي العمل وفي الأماكن التي نرتادها بانتظام وحتّى بغير انتظام. دائماً ثمّة شخص أو أشخاص نجاورهم، هم بالقرب منّا في المكان نفسه أو في المكان المجاور. قلّة من هؤلاء لنا يد في اختيارهم، وكثرة لسنا منْ يحدّد أمر جيرتهم، ولذا فإنّنا نكتفي بهذه الجيرة غير راغبين في تحويلها إلى تقابل.

لكنّ المحيّر هو أنّ علاقات التّقابل في المحيط الضّيّق الحميم، من حيث هي جلوس وجهاً لوجه أمام الشّخص الذي نودّ، والنظر في عينيه وملامح وجهه وقراءة ما تنطوي عليه منْ تعبيرات، والتّماهي مع الإشعاع المنبثق منْ هذا التّقابل، ليس بمعنى المواجهة وإنّما بمعنى ذلك الانخطاف الرّوحي للشّخص المعنيّ -غالباً- أو كثيراً ما تنحدر إلى مستوى التّجاور على النّحو الذي أومأ إليه (ألبير كامو) في إحدى رواياته حين قال على لسان أحد شخوصه: «نحن متجاورون نعم.. لكنْ من النّادر أنْ نتقابل»..!

يشكو النّاس دائماً من الرّتابة، ويتطلّعون دائماً إلى ما هو جديد ومدهش وكاسر للعادة. لكنّ كاتباً كبيراً مثل (ميلان كونديرا) يقول في مكانٍ ما: «إنّ السّعادة هي التّكرار». وقد يبدو هذا القول مستهجناً بعض الشّيء كونه يأتي من كاتب تذهب معظم رواياته إلى هجاء «قوّة العادة» والرّغبة القويّة في التّحرّر منْ أسرها. ولكنّ هذا القول يُمكن أنْ يُقرأ من زاوية أخرى، هي زاوية «الألفة» مع الأشخاص والأشياء والعادات، التي تكتسب مع الوقت طابع التّكرار.

ثمّة صداقة عميقة تتكوّن لدينا إزاء هذه الأمور، وفي اليوم الذي نخالف

فيه مجرى هذه العادات، الأشبه ما تكون بطقوس، نشعر أنّ ثمّة شيئاً اختلّ في نظام حياتنا. إنّ الأمر أحياناً يتّصل بما يبدو في الظّاهر ثانويّاً أو شكليّاً كشرب القهوة مثلاً في موعدٍ معيّن كلّ صباح، أو مطالعة الجريدة المفضّلة أو مشاهدة حلقة المسلسل التّلفزيونيّ اليوميّ، أو الاستغراق في قراءة رواية والتّعلّق بما فيها من شخوص.

إلا أنّ أكثر أنواع الألفة قوّة هي تلك التي تنشأ بين البشر. ثمّة أناس لديهم جاذبيّة خاصّة بحيث أنّك تألفهم بسرعة، تألف حضورهم وتواصلك معهم، وأنت لا تستطيع أنْ تحدّد على وجه الدّقة ما هي طبيعة المشاعر التي تشدّك إليهم، إنّها مشاعر غامضة أو متدثّرة برداء شفيف، ولا تستطيع أنْ تختبر عمق هذه الألفة أو مداها إلا عندما يحدث ما يعكّرها، فينتابك الشّعور بأنّ شيئاً ما قد اختلّ، أوْ أنّ أمراً ما أصبح ناقصاً، وأن الأمور لا تستقيم إلا باستعادته.

هذا النّوع من الألفة هي نفسه السّعادة النّاشئة عن التّكرار.

لا يتنبّه الإنسان إلى قوّة عاداته وسطوتها، إلّا في اللحظة التي يختلّ فيها نظام هذه العادات. وهذه الأخيرة من الاتّساع بحيث تشمل العادات اليوميّة المكرّرة، كالمواعيد الثّابتة للأكل وللنّوم وللاستيقاظ، مثلما تشمل ما هو أعمق من ذلك بكثير كأسلوب التّفكير وطريقة التّصرّف إزاء الأمور.

العادة، أو مألوف التّصرّف مريح أو غير متعب ولا يتطلّب جهداً؛ لأنّه يشبه إلى حدٍّ كبير الأداء الآليّ. الكاتب الايطاليّ (ألبرتو مورافيا) كتب في «الاحتقار» -إحدى رواياته المعروفة- كلاماً مهمّاً عمّا دعاه الآليّة التي تتيح لنا أنْ نعيش بلا تعب يتجاوز الحدّ؛ لأنّنا إذْ نقوم بالأمور الاعتياديّة وبصورة روتينيّة فإنّنا غالباً ما نفعل ذلك دون تفكير أو لا نكون واعين لما نفعل. «إنّ

خطوة واحدة -يقول مورافيا- تتطلّب تشغيل كميّة من العضلات، ومع ذلك فنحن نقوم بها من غير أنْ نعي ذلك، بفضل الآلية».

لا يبدأ المرء في حساب خطواته إلّا في اللحظة التي يعي فيها هذه الخطوات، في اللحظة التي تكفّ فيها الآليّة السّابقة عن الدّوران، فتجد أنّ الكثير من الأشياء التي كنت تقوم بها بطيب خاطر تستوقفك وتسترعي انتباهك وتثير في ذهنك الأسئلة عن مغزاها، وتَمثُل تفاصيلها أمام ناظريك فتستأثر بتفكيرك، وربّما حملتك على التّساؤل كيف كنت تفعل كلّ هذه الأشياء سابقاً دون أنْ يستوقفك السّؤال عن سرّ القدرة في قيامك بكلّ ذلك دون أنْ تشعر بأنّك تبذل جهداً.

ما أكثرَ ما تضع الحياة النّاس في ذلك الحال من الاقتران الوجداني والنّفسيّ والرّوحيّ ببشر آخرين، يجدون في الحديث عنهم حديثاً عن أنفسهم، حين تصبح الحياة مشتركة، وكذلك التّفاصيل واليوميّات والأفكار والهواجس، فيصعب على المرء، إنْ لم يستحل أنْ يتحدّث عن هذا الشّخص "الآخر"، دون الحديث عن نفسه والعكس صحيح، لأنّه يدرك في العمق أنّ الحديث عن ذاته لا يستقيم دون الحديث عن الآخر القرين.

على ضفّة من ضفاف الحياة، قد نصلها وقد لا نصلها إذا ما قرّرت الدنيا مناكدتنا، يقف ذلك الآخر الذي هو معطى لنا، أو يجب أن يكون كذلك -الذي عبره نكتشف أنفسنا- نعرف بفضله تلك الكوامن المخبّأة داخلنا فيجعل لهذه الحياة مغزى. طوبى لمن بلغ الضّفة الأخرى التي يقف عليها هذا الآخر.

في داخل كلّ إنسان منطقة مجهولة حتّى بالنّسبة إليه هو نفسه، إذا ما استثنينا حالات النّرجسيّة المَرضيّة عند البعض التي تجعلهم يعطون

تقييمات أعلى ممّا هي في الحقيقة عنْ أنفسهم، فإنّ النّاس قد تعيش العمر كلّه دون أنْ تكتشف تلك المنطقة المجهولة في دواخلها وتبلغ تلك الضّفة، وقد يحدث أنْ نكتشف هذه المنطقة بمحضّ المصادفة وحدها، وحين يحدث ألّا تأتي هذه المصادفة فإنّنا نموت دون أنْ نعرف أنّ طاقة معيّنة ظلت معطّلة فينا.

هناك أناس يولدون ويكبرون ويتعلّمون ويتزوّجون ويخلّفون أبناء وبنات ويؤدّون كلّ المهامّ الضّروريّة في الحياة، ولكنّهم قدْ يظلّون يجهلون عاطفة مثل عاطفة الحبّ، ليس لأنّه لا توجد لديهم قابليّة لأنْ يحبّوا، أو أنّ مشاعرهم ميّتة، وإنّما بسبب أنّهم لم يلتقوا في حياتهم بالشّخص الذي ما أنْ يقابلوه حتّى يصيبهم شيء أشبه بالمسّ، بالجنون، بالزّلزال، فتتحرّك المشاعر في دواخلهم كما تتحرّك تيّارات المياه في أعماق المحيطات والأنهار محدثة دوّامات كفيلة بأنْ تقلب قاع البحر أو النّهر.

يحدث أنّنا نقع في الحب أكثر منْ مرّة في حياتنا. ويتراءى لنا أنّنا أحببنا وأنّ عواطفنا قد هاجت وماجت، لكنْ يحدث أيضاً أنْ يأتي بعد كلّ هذه المرّات حبّ آخر، عاصف، مجنون يحرّك كلّ ذرّة فينا، فنشعر بأنّ شيئاً أشبه بالانقلاب يجتاح حياتنا، حينها ندرك أنّ ما كنّا ظنناه حبّاً قبل هذه التّجربة كان أقلّ من ذلك، وإذا كان حبّاً فإنّه كان ناقصاً غير مكتمل، وقف عند حدود معيّنة، ولمْ يذهب إلى العمق الذي أدركنا أنّ الوصول إليه ممكن بفضل هذا الحب - الإعصار الذي جاءنا متأخّراً. كأنّ ما مضى لم يكن أكثر من «بروفات» للحبّ العظيم الذي لم نكنْ نعلم أنّه قابع في الغيب.

لماذا يُحدث هذا الحبّ إعصاراً في دواخلنا، ويدوّخ برأسنا ويجعلنا نفاجأ بأنفسنا، وبأنّنا قادرون على أنْ نحبّ بهذا الجنون؟!

ما يحدث حقيقة هو أنّ هذا الحب يُزيح الدّثار عن تلك المنطقة المجهولة في دواخلنا، يجتاحها ويتغلغل فيها حتّى يلامس العصب. ساعتها قد نقول بيننا وبين أنفسنا أو للشّخص الذي فجّر لدينا هذا الإحساس الجميل: لم أكن أصدّق أنّني قادر على أنْ أحبّ بهذا الجنون، أو نقول: كنت أظنّ أنّ قلبي قد تبلّد وأنّني لم أعد قادراً على أنْ أحبّ أحداً آخر. المنطقة المجهولة في دواخلنا، تلك الغابة العذريّة التي لم تطؤها أقدام الحطّابين قبل ذاك. المنطقة التي لا نعرف حتّى نحن أنفسنا أنّها ساكنة في داخلنا قبل أنْ يأتي ذلك الحبّ العظيم فيدخلها فاتحاً. ساعتها نولد من جديد. تنشأ لنا حياة أخرى جديدة، كأنّنا نعرف ذواتنا أوّل مرّة.

***

حين نريد أن نواسي أحداً يعاني من آلام الفقد على أنواعه أو الخيبة أو الهجر نقول له: لا عليك، الزّمن كفيل بأنْ ينسيك. سيأتي يوم وتنسى فيه كلّ شيء ولن تشعر بالألم. لكنْ هل فكّرنا حقيقة في السّؤال الذي يقول: هلْ بإمكان الإنسان أنْ ينسى، خاصّة حين يتّصل الأمر بوقائع وأشخاص استحوذوا على تفاصيل حياته في وقت من الأوقات؟!

إنّنا لا ننسى أبداً. صحيح أنّ الألم النّاجم عن الفقد والخسارة يتناقص بالتّدريج، لكنّ الشّخص نفسه لا ينسى، الواقعة نفسها لا يُمكن أنْ تُنسى. إنّ الذي يحدث بالضبط هو أنّ الأمور تتوارى إلى منطقة خلفيّة في ذاكرتنا، أو تتدثّر برداء كيْ لا تُرى، لكنّها لا تغادر هذه الذّاكرة أبداً.. إنّها بتوصيف أدقّ تغفو إغفاءة المسافر، فما تكاد تسمع طرقاً خفيفاً حتّى تصحو وتستيقظ نشطة.

نحن لا ننسى، إنّما نتظاهر بالنّسيان. إنّ رغبة ملحّة، مُعذّبة تنتابنا في

قالوا عن هذا الكتاب

أنهيت قراءة كتاب حسن مدن الجميل: «ترميم الذاكرة» بنهمٍ لم أعرفه منذ زمن بعيد، وأشعرني في تفاصيله حتى الصغيرة أنني كنت معه، لا أقرؤه فقط، بل وأعيش معه في تلك التواريخ والأمكنة.

خالد البسام

نص «ترميم الذاكرة» ينقلنا من مكان إلى آخر، ومن زمنٍ إلى آخر عبر أيقونات تستدعيها الذات المبدعة للتعبير عن رحلة الحياة خارج الوطن وداخله في مزاوجة فنية مكانية معتمدة على خطاب لساني مفعم بالحياة النابضة بالحزن والأسى.

د. عائشة الدرمكي

يتحقق الحديث عن المكان في «ترميم الذاكرة» من منطلقين: منطلق النظر إليه كداخل، أصل ونشأة. ومنطلق الخارج المحيل على جملة من الأمكنة التي تم التآلف معها. إنه بصورة من الصور الوطن الذي مهما اغتربنا عنه يشدنا الحنين إليه.

صدوق نور الدين

التّحرّر من الألم النّاجم عن الشّعور بالفقد مثلاً هي التي تحملنا على السّعي لإقصاء الأمر من الحضور اليوميّ في أذهاننا، الحضور الدائم. وربّما ينجح بعضنا بعد حين من الوقت، بعد طول تدريب منْ أنْ يفعل ذلك، لكنّه لا يكون بذلك قد نسى، إنّ كلّ ما فعله هو أنّه وضع الأمر داخل خانة صغيرة من خانات الذّاكرة وأغلق عليه الباب حتّى يحصر نطاق الألم النّاجم عن ذلك، لكنّ هذه الخانات كثيراً ما تنفتح من تلقاء نفسها، فنقوم ببذل جهد إضافيّ لإعادة إغلاقها.

النّسيان هو ذاكرة أيضاً. إنّه مثلها وسيلة للحفظ، نلجأ إليه وسيلة من وسائل الهروب من سطوة حضور الذّاكرة، لكنّها أشدّ مكراً منّا ومنه. إنّ ما يحدث هو أنّ الذّاكرة المواربة أو المتوارية، أو المتدثّرة برداء، أو القابعة في خانة أُغلق عليها الباب، تنبعث من جديد ما أنْ تنشط محفّزات هذه الذّاكرة، فنذهل لتلك اللحظة التي تستحوذ علينا فيها ذكرى وجوه وأماكن ووقائع خلنا أنّنا قد نسيناها تماماً، فإذا بها تعود بكمال وجلال تفاصيلها، لنكتشف أنّنا لم ننسَ وأنّ النّسيان خديعة ابتكرناها كيْ نتغلّب على الألم النّاجم عن الفقد أو الخيبة أو الأذى.

هذا الكتاب بالنسبة إليَّ، ليس ترميماً للذاكرة بقدر ما هو إيقاظ لها، واستفزاز لما يراد له أن يتوارى وينسى. هو مشروع تمثل وحضور لها. تمثل وحضور يرمي فيما يرمي، إلى استعادة اللحظات المغيَّبة. «ترميم الذاكرة» مشروع نموذجي وجدير بتمثل عمل روائي في الصميم من القيمة والمعنى والهدف واللغة في أسمى معانيها وصورها.

جعفر الجمري

الحنين هو الذي دفع الكاتب إلى نبش الذاكرة بل إلى ترميمها، حينئذ يغدو للتذكر طعم البهار اللاذع إذ يجمع بين حلاوة الحنين وألم التذكر لأيام ماضيات تلح على الكاتب كما غيمة في أيام كانون فلا تهدأ حتى تمطره بالأسئلة التي لا تكاد تنقطع.

أمل المشايخ

كتاب ممتع جعلني أتساءل: هل من الأفضل أن نُداري أوجاعنا عن الآخرين، أم الأمثل أن نجعلهم يُشاركوننا إياها؟!

زينب حفني

تنطوي هذه السيرة على كم هائل من الأسى والحزن والشفافية والبوح والفرح والسعادة والإخفاء والكتمان. كم هائل من التناقضات غير المتضادة، أو بلغة أخرى المتناقضات المتضافرة المتواشجة التي تقودنا إلى عالم كامل مشيد بحب ولوعة؛ عالم من الأسى الجميل.

د. صالح سليمان عبدالعظيم

في الكتاب ذاكرة جميلة مخفية باقتدار وفنية لغوية ودلالية بين سطورها المعلنة.

د. فهد حسين

لا أتذكر أنني قرأت كتابا بمثل هذا الشغف والمتعة البالغة كما تجسد في كتاب الدكتور حسن مدن «ترميم الذاكرة» لما تتميز به كتاباته من عمق في الفكرة وجرأة في الطرح وسلاسة في الأسلوب.

محمد المحفوظ

كقراء علينا أن نستمتع فقط أمام هذه الطاقة المتفجّرة بالحياة والمعرفة والحب والدهشة، قد يكون صحيحاً أننا حين نقرأ الكتاب نشعر وكأننا أمام طفل صغير تأخذه الدهشة بكل شيء وبالطبع هذا الطفل هو ذاته الفيلسوف الذي يحلل هذه الدهشة ويحاول أن يعرف مصادرها.

مهدي سلمان

كتاب ملهم بحق.. تعجبني لغة الكاتب فهي تمثل حالة من تلك الحالات التي تكاد تكون نادرة حين تتقمص اللغة روح كاتبها وتتحلى بصفاته. جديرة بالسرد هي منعطفات تلك الحياة التي وُهبت للرسالة.

عائشة الكعبي

في ختام الكتاب ستكون منتشياً بتلك الذاكرة المرممة التي ردمت بعض جراحها من خلال مشاركتك لها في ذلك التطواف والذي انتهى بفتح باب التساؤل حول ماهية رتق شقوق الذاكرة بتقاسم آلمها مع الآخرين وهو النسيان الذي لا ينتهي للفراغ بقدر ما يعني التخفيف من ثقل هذه الذاكره بتناقلها وتفتيتها من ذات واحدة لإعادة تشكيلها على ذوات وأماكن.

صالحة عبيد

صدر للمؤلف:

- خارج السرب، 1999
- زهرة النيلوفر، 1999
- الثقافة في الخليج: أسئلة برسم المستقبل، 2000
- مزالق عالم يتغير، 2001
- تنوُّر الكتابة، 2002
- لا قمر في بغداد، 2005
- ترميم الذاكرة، 2008
- الكتابة بحبر أسود، 2015
- للأشياء أوانها: ما تيسّر من الأهواء والحواس، 2017

HASAN MADAN

MEMORY RESTORATION

أن تكون ذاتك بالدرجة التي تجعلك الناس كلهم، هذا ما يمنح السيرة الذاتية -كفنٍ كتابي- غناها، حيويتها، ونضجها. بذلك، لا يمكن التفريق بين الخاص والعام، المقولة أو الذاكرة، المعايشة أو السرد، إنها تصير به فن التأمل العميق لما يُلفت ولا يُلفت الانتباه، أليس هذا ما يتقنه حسن مدن؟ الذي يقول في هذا الكتاب: «يصعب على المرء أن يتحدث عن الآخر دون الحديث عن نفسه، والعكس صحيح، إنه يدرك في العمق أن الحديث عن ذاته لا يستقيم دون الحديث عن الآخر القرين.»

وهنا، في هذا الكتاب يحدثنا مدن عن غرباته ومنافيه، عن مدنه الأثيرة وأماكنه المحببة، عن ناسه القريبين وعن خساراته الأليمة، لكنه في كل ذلك لا ينجرف وراء غواية ثرثرة السرد التي قد تقدمها فكرة السيرة الذاتية، إنه يقظ تماماً لما يريد منحه لنا ولنفسه، فرصة اكتشاف الذات وليس تقديمها لنا، فرصة أن يكوننا جميعاً إذ هو يتحدث عن نفسه.

إنها سيرة ذاتية عن كاتب اختارته السياسة فاختار الأدب، وعن إنسانٍ اختارته المنافي فاختار الحنين، وعن حالمٍ اختاره الواقع فاختار الحياة في الكتب.

الناشر

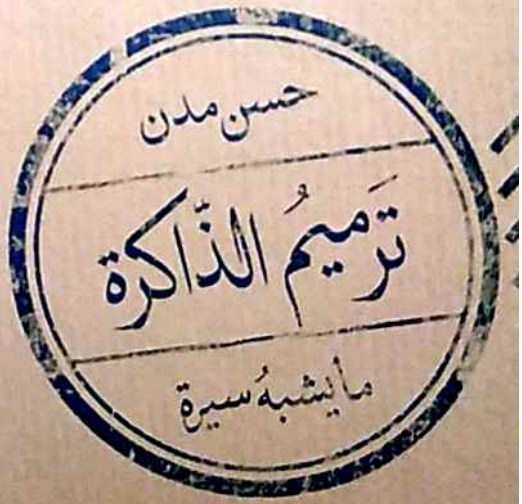

ISBN: 978-1-988483-24-5